مسألة الحرية في الوعي الغربي

وائل أحمد خليل*

مقدمة:

إذا أمكن القول بأن مفهوم الحرية حتى من جهة الاصطلاح الذي يقابل في اللغة الإنجليزية freedom هو مفهوم مشكل في ذاته من جهة المعنى meaning والدلالة reference، فانه لربما تَصدَّرَ هذا الإشكال والإحساس به إلى مناطق الوعي الشرقي جراء كيفية الاستخدام لمثل هذه العلامة[1] sign أي الحرية لدى أصحاب الوعي الغربي (أوروبا وأمريكا). لقد ارتبطت كيفية الاستخدام هذه بصورة أساسية ومباشرة بنمط أو بنظام أو باتجاهات الوعي الغربي على وجه الخصوص الذي وسم كل عناصره بطابعه الخاص منذ عهد الأسطورة الأوروبية القديمة. وقد عبر عن ذلك أدموند هوسرل[2] E. Husserll أحد أعظم فلاسفة أوروبا في القرن العشرين- في بعض كتاباته الرئيسية بمفهوم الأزمة crisis، ذلك المفهوم الذي انسحب بالضرورة على العناصر الأساسية في نظام الوعي ومنها (الحرية)، وأصبحت هذه الإشكالية من أهم مظاهر هذه الأزمة على كافة المستويات، من ميثولوجيا وتجريد صوري ومعايير علمية وإحالات فلسفية وتبريرات دينية وغير ذلك. وقد أوجد ذلك عدداً من الثغرات الفكرية التي كان من شأنها إرشاد المسلمين إلى إعادة النظر العقلي في فهم نصوص القرآن الكريم وقراءته بنوع من التدبر، الذي قد يعطي تطوراً إنسانياً عاماً في فهم حقيقة الحرية وممارستها وفق الرؤية الكونية القرآنية الشاملة.

---

* توراه في فلسفة العلم والمنطق، أستاذ مساعد في جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.

1 المقصود بالعلامة هو تحويل الفهم لمفهوم معين نحو اعتباره عنصراً في سياق اتصالي CONTEXT معين.

2 ادموند هوسرل (1859- 1938)، فيلسوف ألماني معاصر، هو مؤسس الفينومينولوجيا الحديثة ويعتبر من أهم الفلاسفة الذين أثروا في طريقة التفكير الفلسفي لدى كافة مذاهب القرن العشرين في أوروبا، وذلك لأنه يرجع إليه كثير من الفضل في تحويل الفلسفة نحو اعتبارها منهجاً للفهم والتحليل لتصبح بذلك علماً محكماً وليست أنساقاً من الأفكار التأملية التقليدية، فأقام على ذلك منهجه الفلسفي لفهم وتحليل الوعي consciousness وإلغاء الفاصل الذي أحدثته الفلسفات التقليدية بين (الوعي) و(الموضوع). كما أن من الأسباب التي منحت منهجه الفلسفي تلك الأهمية المحورية في الفكر الأوروبي هو موافقته واستيعابه للتحولات العلمية الكبرى في بدايات القرن العشرين والتي تمثلت في نظريتي النسبية وميكانيكا الكم. له العديد من المؤلفات في فلسفة المنطق وفلسفة علم النفس وفلسفة الرياضيات، أصبحت الفينومينولوجيا على يديه مدرسة متكاملة داخل معظم ميادين العلوم الإنسانية.

يهدف هذا البحث إلى تحقيق غرضين: الأول هو غرض منهجي، وهو توجيه زاوية الرؤية لدى الباحثين والمهتمين بمسألة الحرية نحو ضرورة تحليل مفهوم الحرية ومفاهيم أخرى مماثلة في إطار رؤية تاريخية لنمط معين من أنماط الوعي، وهو في هذا البحث نمط الوعي الغربي، وعلى وجه الخصوص ما كان سائداً في أوربا وفق رموزها وأعلامها الفكرية ومذاهبها الفلسفية وأصولها الدينية والعقدية. وذلك من أجل إصدار حكم منطقي سليم بصدد مشكلة الحرية، في ضوء السياق أو النسق العام الذي تمثل القضية عنصراً فيه.

أما الغرض الثاني للبحث فهو غرض معرفي مترتب بالضرورة على الغرض الأول، ويهدف إلى تحقيق رؤية تطويرية للمعرفة على مستوى معين، بحيث يمكننا تحقيق إضافة معرفية بالإفادة من الكشف عن الاتجاه الأساسي للتفكير في القضية المعنية على مدى تاريخ وتراث وأدبيات نمط وعي معين؛ الأمر الذي يكشف بدوره عن مواطن الثغرات التي يكون العلاج بصددها، إما بسدها وإما بإعادة البناء على أصول مستمدة من مرجع دلالي معين، وهو هنا القران والسنة حسبما يقتضي الحال.

ولتحقيق هذين الغرضين عرضت عناصر البحث في إطار أربعة محاور. يبدأ أول هذه المحاور بمحاولة الكشف عن ذلك المنطق الذي أدى بالفكر الغربي إلى اتصافه بخاصية أساسية وهي التوليد المستمر للأزمة. وذلك في مستوى الأصل المتعلق بعقائد الإنسان الغربي وتأويلاته الدينية، الممتدة منذ مرحلة ما قبل العلم أي مرحلة الميثولوجيا، التي تكشف فيها الأسطورة القديمة في الغرب عن طابع التكوين العقلي ونمط الفاعلية العقلية للإنسان الغربي منذ بدايات طريقة حياته فيما قبل اعتناق الديانات السماوية من يهودية ومسيحية، ويأتي كل ذلك مقرونا بطابع الميثولوجيا الشرقية التي عبرت عن نمط الوعي الشرقي. ومن ثم امتداد هذا الوعي بصورة متوافقة رأسياً وصولاً إلى ما يمكن اعتباره حجر الزاوية في تشكيل العقل الغربي الأوروبي في مواقفه المذهبية بصدد مسألة الحرية. ونعني بهذا بعض النصوص في العهد (القديم) والتأويلات عليها، التي تكشف عن حقيقة المنطلقات العقلية الأوروبية في إصدار الأحكام وبناء المذاهب الفكرية.

وفي المحور الثاني للبحث يكون الانتقال نحو امتداد متطور في الخط المنهجي للوعي الغربي، وهو حصيلة المواقف المذهبية–الفلسفية بصدد مسألة الحرية، والتي قضت الضرورة فيها بالتقسيم بين المادية والمثالية منذ الحضارة اليونانية وحتى أخريات القرن التاسع عشر، ثم الانتقال بعد ذلك بنفس هذا الخط المنهجي

للوعي الغربي إلى تأسيس أنماط مغايرة عبرت عن أبعاد جديدة في أزمة الحرية نتاجا للأحداث التاريخية، التي تميزت بها تلك المرحلة اللاحقة حتى أخريات القرن العشرين.

وفي المحور الثالث للبحث تفسير النتائج العلمية المعاصرة على العقل الغربي وتأثيرها، وكيف تمثل هذا التأثير والتفسير في تأسيس أنساق منطقية صورية بكيفيات معينة؛ مما أدى إلى الكشف عن عمق آخر في منطق خلق الأزمة والذي انتهى بالوعي الغربي إلى ثورة في الفكر العلمي بصدد مسالة الحرية تأكد لديه فيها إحلال الشك محل اليقين والاحتمال محل الضرورة والنسبية محل الإطلاق. ولعل هذا كان ذا فائدة؛ إذ أعاد الوعي الغربي السؤال نحو ذاته كرة أخرى حول حقيقة الغيب والدين والميتافيزياء، وضرورة الاسترشاد بمرشد كوني يضمن للإنسان مرة أخرى مفاهيم اليقين والضرورة والإطلاق.

بهذا يقود سياق البحث إلى المحور الأخير ليكون مجموعة استنباطات للرؤية الكونية الإسلامية بصدد مسألة الحرية، وذلك من منطلق مسلمة مستفادة من تاريخ الوعي الأوروبي في هذه المسألة وهي الخلق المستمر للأزمة، يأتي من البحث عن (قيد على الحرية) وليس (إطلاق للحرية). هنا تكمن المشكلة وهنا كذلك يكون الحل. يأتي بحث هذه المحاور في محاولة مختصرة لتلمس معالم الطريق في أصوله دون الدخول في التفصيلات الأدبية المتعمقة، وذلك بغرض إظهار الصورة العامة لأزمة الحرية في الغرب ومؤشرات الرؤية الإسلامية.

أولاً :طابع الميثولوجيا الغربية وتأويل العهد القديم:

لعله يمكن ملاحظة أو استنباط حكم معين بصدد الرؤية المقارنة لأنماط الميثولوجيا بصورة موجزة، فيكون ذلك بالإشارة إلى أن الافتراضات التي يمكن طرحها بصدد تفسير حقيقة الميثولوجيا الغربية من الممكن أن تؤدي إلى الكشف عن الخط المنهجي theme في التفكير الغربي في مجمله حتى الراهن المعاصر، بحيث يبدو كعرض تتكامل فيه الأدوار في وصل ماضيه بحاضرة واستشراف مستقبله.

في هذا الصدد، يمكن إجراء الوصف المقارن بأن الميثولوجيا الشرقية كانت هي تلك الأحوال الفكرية التي عاشتها الحضارات القديمة، في مناطق الشام ومصر والعراق والشرق الأقصى وغيرها، فيما كان يقوم في

مقابلها حضارات اليونان والرومان والجرمان. هذا ويمكن الافتراض بأنه إذا كان ما يميز الميثولوجيا الشرقية بصورة عامة هو أن الطبيعة فيها كانت قائمة لخدمة الروح، بما تحمل من معاني التجريد والإطلاق وتجاوز الحس التجريبي المباشر ومخاطبتها ملكة الوجدان، كانت هي الأساس في فاعلية طرق الحياة التي عاشها الشرقيون، وهي العنصر الثابت المهيمن فوق العنصر المتغير وهو الطبيعة المادية والجسدية. وقد أدى هذا الطابع للميثولوجيا الشرقية –على سبيل الملاحظة– إلى التقدم نحو مزيد من التفكير الروحاني بمرور الزمن، مما أعلى بدوره من مبدأ (وظيفية العلم)؛ أي العلم الطبيعي بقدر الحاجة وليس من أجل ذاته، الأمر الذي ساعد على الاتجاه نحو رهن الموضوع الفردي إلى الذات العامة وإعلاء القيم الأخلاقية كأساس مطلق وعام. كما كان من نتائجه المنطقية الابتعاد عن تصنيف المجتمع ونظامه بنحو طبقي إلى سادة وعبيد، وما كان ذلك إلا بصورة وظيفية عرضية تتلاشى مع التقدم بطبيعة حالها.

وقد كان هذا (الروح الشرقي) في مقابل (الوعي الغربي) الذي جُعلت فيه الروح –على سبيل الملاحظة– في مرحلة الميثولوجيا المتقدمة لدى "هوميروس"[3] وغيره، في خدمة الطبيعة، فكان ذلك بمثابة التمهيد الطبيعي، والمقدمة الضرورية لظهور التفكير العلمي المنظم، والانتقال إلى مرحلة الفلسفة والمنطق ومبدأ العلم من أجل العلم –أي العلم على إطلاقه، دون اعتباراً للجانب الوظيفي لديه، الأمر الذي أدى إلى تحقيق التطور المطرد للعلم الكوني لدى الغربيين بنحو ما هو ثابت تاريخياً.[4] غير أنه كان من سلبيات هذا الطابع للوعي أن أدى إلى تصنيف المجتمعات بنحو طبقي إلى سادة وعبيد بصورة متأصلة على أساس عرقي يزداد مع التقدم، بنحو ما نجده في الفكر المعاصر لدى "هيجل"[5] و"نيتشة"[6] وغيرهم. ولربما كان السياق

---

3 هوميروس: شاعر يوناني قديم، يعتبر من الحكماء السبعة فيما قبل بدايات التفكير الفلسفي المنظم مع طاليس. تعتبر مؤلفاته الإلياذة والأوديسا مصدراً أساسياً من مصادر الأسطورة اليونانية القديمة.

4 مطر، أميرة حلمي. الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، جامعة القاهرة فرع الخرطوم، 1988، ص18–26

5 جورج فلهلم فريدريك هيجل (1770–1831) يلسوف ألماني يعد من أكثر الفلاسفة شهرة وتأثيراً عبر التاريخ، أسس المنطق الجدلي أو الديالكتيكي بصورته الحديثة على أسس مثالية مطلقة لفهم وتفسير حركة الوعي والتاريخ والمجتمع، اتجه إلى تفسير التطور على مستوى الوعي والتاريخ وفقاً لنوع من الحتمية والضرورة العقلية برهنها لمراحل تحقق ما اسماه بالمطلق في العلم، كما أنه أقام هذا التطور على هيئة جدلية مثلثة من التقاء الضد والضد الآخر والمركب منهما. له مؤلفات ضخمة ومحاضرات في كافة فروع المعرفة أهمها مؤلفاته ومحاضراته في المنطق وفي فلسفة التاريخ.

6 فريدريك نيتشه (1844–1900): فيلسوف ألماني من أتباع ما يعرف بمذاهب فلسفات الحياة، تخصص في الأصل في مجال علم اللغويات القديمة Philology أو ما يعرف عموماً (بفقه اللغة)، وقد أفاد من تخصصه هذا في فهم اتجاهات العقلية اليونانية القديمة

العلمي كما نشأ لدى الغربيين هو المحقق لما عرف فيما بعد بأزمة العلم المعاصر، ولربما كان هذا هو ما أوحى للوعي الغربي بأن هنالك أصلاً أزمة في الحرية على مستوى المفهوم والتصور، وعلى مستوى الممارسة والفعل؛ ولعل ذلك كان سبباً في تحيز الفكر الغربي في جانب كبير منه نحو رهن الذات الفردية إلى الموضوع العام المحايد، واعتماد القيم الأخلاقية بوصفها متغيراً نسبياً تواضعياً، أملاً في الانفلات من الإحساس بأزمة الحرية، إما بكسر كل قيد تماماً وإما بالخضوع كلية إلى القيود.

وإذا كانت الحرية قد وصلت إلى أعلى درجة لها من الأزمة والتعقيد في الفكر المعاصر، فإننا يمكن أن نجد لذلك أصلاً ضرورياً في المعتقد الديني المبكر الذي مصدره كتاب (العهد القديم)، وذلك وفق الحالة التي وصل بها إلى الوعي الغربي، فكان تبريراً دينياً لأزمة الحرية بترسيخ ذلك (العهد القديم) لمبدأ أصيل في الفكر الغربي وهو مبدأ الصراع. وقد أسس (العهد القديم) الموجود بين أيدينا الآن لحالة الصراع منذ البدء بين الرب والإنسان الذي هو مخلوق له. ويمكن أن نلحظ ذلك بصورة واضحة في النصوص التالية من سفر التكوين (بالعهد القديم). "وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها. وأمر الرب الإله آدم قائلاً: كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتماً تموت."[7]

"وكان آدم وامرأته عريانين ولم يعترهما الخجل."[8]

"وكانت الحية أمكر وحوش البرية التي صنعها الرب الإله، فسألت المرأة: أحقاً أمركما الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فأجابت المرأة "يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا بل إن الله يعرف أنه حين تأكلا من هذه الشجرة تتفتح أعينكما فتصيران مثله قادرين على التمييز بين الخير والشر. وعندما شاهدت المرأة أن الشجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضاً فأكل

واستخدام هذه الاتجاهات في مراجعة القيم –لاسيما الأخلاق المسيحية– في دعوته إلى السوبرمان أو الإنسان الأعلى على أساس قيم السادة وهي القيم المناقضة العبيد وهي قيم التسامح التي أتت بها المسيحية. اتسمت كتاباته بالطابع الأدبي والرمزي وشدة الغموض.

7 الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين (Great Britain, International Bible Society) 1999، ص2

8 العهد القديم، سفر التكوين، ص3

معها فانفتحت للحال أعينها وأدركا أنهما عريانين فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين. ثم سمع الزوجان صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ من حضرة الرب الإله بين شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم: أين أنت؟ فأجاب: سمعت صوتك في الجنة فاختبأت خشية منك لأني عريان. فسأله: من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟ فأجاب آدم: إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي، هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة فأكلت. فسأل الرب الإله المرأة: ماذا فعلت؟ فأجابت: أغوتني الحية فأكلت. فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من بين جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، ومن التراب تأكلين طوال حياتك. وأثير عداوة دائمة بينك وبين المرأة. وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه ثم قال للمرأة: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاداً وإلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلط عليك. وقال لآدم: لأنك أذعنت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها فالأرض ملعونة بسببك، وبالمشقة تقتات منها طول عمرك شوكاً أو حسكاً تنبت لك وأنت تأكل عشب الحقل، بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض فمن تراب أخذت وإلى التراب تعود.

وسمي آدم زوجته حواء لأنها حي. وكسا الإله الرب آدم وزوجته ردائين من جلد صنعهما لهما. ثم قال الرب الإله: ها الإنسان قد صار كواحدٍ منا يميز الخير والشر وقد يمد يده يتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض التي أخذ من ترابها. وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن وأقام ملائكة الكروبيم."[9]

"وكان أهل الأرض جميعاً يتكلمون بلسان واحد ولغة واحدة. وإذا ارتحلوا شرقاً وجدوا سهلاً، فقال بعضهم لبعض: هيا نصنع طوباً مشوياً أحسن شيء. فاستبدلوا الحجارة بالطوب، والطين بالزفت. ثم قالوا هيا نشيد لأنفسنا مدينة وبرجاً يبلغ رأسه السماء فنخلد لنا اسماً لئلا نتشتت على وجه الأرض كلها. ونزل الرب ليشهد المدينة والبرج اللذين شرع بنو البشر في بنائهما. فقال الرب: إن كانوا كشعب واحد ينطقون بلغة واحدة، قد عملوا منذ أول الأمر، فلن يمتنع إذاً عليهم أي شئ عزموا على فعله، هيا ننزل إليهم ونبلبل

---

9 المرجع السابق، ص4-5

لسانهم حتى لا يفهم بعضهم بعضاً. وهكذا شتتهم الرب من هناك على سطح الأرض كلها، فكفوا عن بناء المدينة بابل لان الرب بلبل لسان أهل كل الأرض، وبالتالي شتتهم من هناك في أرجاء الأرض كلها."[10]

ظهر في هذه النصوص أنها تشتمل بصورة واضحة على تبرير للصراع المطلق في الكون، والذي يتمثل في أقوى أشكاله بين الرب والإنسان. وجعل (العهد القديم) الذي بين أيدينا اليوم مصدر هذا الصراع هو شعور (الغيرة) غيرة الرب من الإنسان. فالعهد القديم يصور في النصوص المذكورة أن الرب يغار من الإنسان إذ علم أنه يحمل في ذاته قدرة أن يصبح في يوم ما إلهاً كما الله (سبحانه وتعالى عما يشركون)، لكأنما الله لا يعلم من خلق ليفاجئ به فيما بعد، وقد نجد أصلاً لذلك في الرؤية الكونية الأرسطية والتي تقضي بأن الله بضرورة كماله لا يعلم الجزئيات وهو مكتف بذاته عن العالم والخلائق، فلا يمثل علة فاعله للعالم بل علة غائية فحسب له دون أن يعلم هو بذلك أصلاً، فهو المحرك الذي لا يتحرك،[11] والرب في (العهد القديم) يفعل الفعل بأمره أولاً، ثم بعد أن يكون ويراه يعرف من ثم عاقبته فيستحسنه أو يستهجنه: "أمر الله: ليكن نوراً. فكان نور ورأى الله النور فاستحسنه."[12]

ونفس الحكم مستمر في كل أعمال الخلق منذ اليوم الأول وحتى اليوم السابع الذي باركه الرب وقدسه لأنه استراح فيه من جميع أعمال الخلق.[13] هذا وقد تمثل ذلك الشعور بالغيرة في أول مظهر له في نتيجة أكل الإنسان من شجرة معرفة الخير والشر فيصير حراً أمام الفناء فيصير خالداً كما الرب. فكأن ذلك الشعور بالغيرة هو المبرر لإخراج الإنسان عن الجنة فلا يأكل منها المزيد. كما تمثل ذلك الشعور بالغيرة آخر الأمر بعد الخروج من الجنة إلى العالم، فقد رأى الرب أن تلك الفاعلية الإلهية قد تتحقق لدى بني الإنسان بقوة وحدة الاجتماع لديهم، والتي تمثلت في اللغة الواحدة، ومن ثم وحدة بناء العمران والبناء الاجتماعي والنفسي الواحد؛ إذ أن وحدة اللغة تعني وحدة المعنى ووحدة الدلالة، وهذا بدوره يعني وحدة العقل mind والفعل act، فيكون بذلك للكون قوتان على قدر المساواة: الرب في السماوات، والمجتمع الإنساني على الأرض،

---

10 المرجع السابق، ص12

11 طر، أميرة حلمي. الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص291-295

12 العهد القديم، سفر التكوين، ص1و 2

13 المرجع السابق، ص2

لذا كان لا بد أن يجئ تقرير (العهد القديم) الذي كتبه أحبار اليهود بأيديهم أن للرب حاجة لأن يفرق فيسود. ومن جانب آخر يمكن ملاحظة أن هذا الصراع بين الرب والإنسان كما صوره (العهد القديم) كان هو مقدمة الصراع بين فئة الشعب المختار وباقي فئات بني الإنسان؛ فما يوحيه ما كتبه أحبار اليهود في (العهد القديم) أن الرب يختار ويختص شعباً من شعوب الأرض يستعديه عليها لتتحقق له السيادة كإله من جهة، ومن جهة أخري ليكون ذلك هو المبرر لبلوغ بني إسرائيل الحرية الحقيقية بإعلائهم فوق باقي الشعوب، وذلك مشار إليه فيما تم الزعم بأنه ترنيم موسى في سفر (الخروج) والتي جاء فيها: "قدت برحمتك الشعب الذي افتديته وبقدرتك هديته إلى مسكنك المقدس فتسمع الشعوب وترتعب، وتستولي الرعدة على أهل فلسطين. آنئذ يندهش أمراء أدوم، جبابرة مآب تأخذهم الرجفة، ويذوب حكام كنعان هلعاً. يسودهم الخوف والرعدة وبقدرة ذراعك يجمدون كالحجارة حتى يعبر شعبك يا رب، حتى يعبر شعبك الذي اشتريته. تأتي بهم وتغرسهم في جبل ميراثك. الموضع الذي جعلته يا رب لسكناك، الذي أعدته يا رب يداك، الرب يملك إلى الأبد."[14] كما نجده في (شعب مقدس) في (سفر التثنية):

> "إنكم شعب مقدس للرب إلهكم، فإياكم اختار الرب لكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص. لم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثر عدداً من سائر الشعوب، فأنتم أقل الأمم عدداً، بل من محبته وحفاظاً على القسم الذي أقسم به لآبائكم أخرجكم بقوة فائقة ووقاكم من نير عبودية فرعون ملك مصر، فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله الإله الأمين الوفي بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظي وصاياه إلى ألف جيل، وهو يجزي مبغضيه علناً فيستأصلهم ولا يتمهل بل يسرع في معاقبة من يبغضه، فأطيعوا الوصايا والفرائض والأحكام التي أوصيكم بها اليوم لتمارسوها. فإن استمعتم إلى هذه الأحكام وأطعتموها وعملتم بها فإن الرب إلهكم يحافظ لكم على العهد والإحسان كما حلف آبائكم، ويحبكم ويباركم ويكثركم ويبارك ثمرة أحشائكم وغلة أرضكم من قمح وزيت، ويزيد من إنتاج بقركم ويمنحكم على الأرض التي أقسم لآبائكم أن يهبها لكم تكونون مباركين أكثر من جميع الشعوب، فلا يوجد عقيم عاقر فيكم ولا في بهائمكم، ويقيكم الرب من كل علة وكل أمراض مصر الخبيثة التي

---

14 العهد القديم، سفر الخروج، ص114، 115

عاينتموها، ولا يصيبكم داء بل يجعلها على مبغضيكم. وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم فلا تشفقوا ولا تعبدوا ألهتهم لأن ذلك شرك لكم."[15]

وعليه فالشعب المختار هو الشعب القادر فوق سائر الشعوب بأمر الرب؛ فهو إذاً الشعب الحر. ولكن منطق (العهد القديم) في وصف مواقف الرب وأحواله يجعل من الممكن لدينا أن نرى هذه الحرية بمثابة عقد مبرم بين الرب وبين ذلك الشعب المختار من بني الإنسان، يقوم على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، بإرادة من الشعب المختار، وبغير إرادة من الرب بحيث يكون الشعب المختار أمام باقي الشعوب هو المفوض بالضرورة (عن ذاته أصلاً وعن الرب ظاهراً) لقيادة الصراع وحل أزمة الحرية للإنسان بتبعيته المطلقة لسيادة هذا الشعب.

من هنا كان يبدو منطق الأزمة للحرية في الوعي الغربي مستنداً إلى أصول عقدية شكلت هذا الوعي منذ بواكيره الأولى، وكان هذا الموقف العقدي بدوره نتاجاً لمقدمات فكرية تمثلت في الشكل الميثولوجي الطبيعي لدى الغربيين لا سيما لدى اليونان والرومان والجرمان وفي بعض المواقف والتعاليم الفلسفية الإغريقية القديمة.

ثانياً :الإحالات الفلسفية والأنساق الفكرية الأوروبية

يمكن القول بأن النتائج الكبرى التي توصل إليها الفكر الغربي –لا سيما في أوربا– والتي أدى إليها عدد من المذاهب الفكرية المحورية منذ عهد اليونان فيما قبل ميلاد المسيح، مروراً بعصر النهضة وما بعد ذلك حتى الآن إنما هي حلقة متصلة يدعم أولها آخرها على مستوييها المثالي–العقلي[16] idealism– rationalism والتجريبي–المادي[17] materialism–empiricism بدءاً بالموقف الاعتقادي الآنف

---

15 العهد القديم، سفر التثنية، ص305، 306

16 المذهب المثالي–العقلي: هو المذهب القائل بأسبقية الوعي على الوجود المادي وأن الكليات القبْلية هي التي تحدد الأصناف التجريبية الموجودة في العالم، وأن الإنسان يولد وهو مزود بأفكار ومبادئ فطرية سابقة على التجربة الحسية. أهم من قال به أفلاطون– ديكارت– هيجل.

17 المذهب التجريبي–المادي: هو المذهب القائل بأسبقية الوجود المادي على الوعي، وأن التجربة الحسية هي التي تحدد وتشكل الوعي والمعرفة، وأن الإنسان يولد وذهنه صفحة بيضاء خالية من أي معرفة وتتكون المعرفة بعد ذلك بفعل التجربة عن طريق الحواس. أهم من قال به بيكون–لوك–ماركس– الوضعية المنطقية.

الذكر وحتى المواقف الفلسفية بصدد ما عرف بالثورات العلمية في الراهن المعاصر. وكان الأمر في كل محور من محاور هذا الفكر ونتائجه أن قضية الحرية لا تنفصل –في اعتبارها أزمة– عن مجمل الإشكال العام، الذي تأتي محاولات حله تبريراً لقيام مذهب معين أو غيره. فمنذ بلوغ طور النضج لمرحلة التأسيس الفلسفي في الفكر اليوناني ظهرت مدارس فلسفية كانت بمثابة علامات استوعبت في طيها خلاصة هذا الفكر فيما قبل وبعد الأرسطية[18] Aristotelian؛ ونعني هنا مدارس الابيقورية[19] epicurism والرواقية[20] stoicism والشكية المتأخرة[21] skepticism، والتي يمكن وصفها بأنها اختزلت الصراع والأزمة الفكرية في مجملها في أزمة الوجود الإنساني وحريته وخلاصه. فكان أن اتحدت هذه المدارس الفلسفية في التسليم بمبدأ ضرورة الخلاص للإنسان على الأرض، والذي يعني منح الحرية الكاملة للإنسان بتخليصه من كل مقومات هذه الحرية من إرادة وانفعال وما إلى ذلك. وكان هذا الخلاص هو ببلوغ الحالة التي اصطلح عليها في اليونانية القديمة ب (الأتراكسيا) ataraxia والتي تعطى معنى الطمأنينة السلبية أو حالة الخلو من الألم، فتكون هذه الحالة بذلك هي قيمة value تتعلق بالسلوك الإنساني من جهة الاستقراء لما هو عليه حال الفطرة الطبيعية في بناء الموجود البشري، وصياغة لموقف أنطولوجي وابستمولوجي بتحديد علاقة الإنسان بالوجود والطبيعة، ثم الانطلاق من ذلك إلى رسم الطريق المؤدي إلى تحقيق الغرض القيمي المتمثل في مرحلة الأتراكسيا. وفي هذا ذهب "ابيقوروس"[22] (Epicurus) إلى أن "الإدراك للسعادات الأساسية في تعاقبها، إنما يدل على إدراك الحالة السوية للوجود المتوقفة على صحة العقل والجسد والتحرر من المخاوف ومن جميع

---

18 نسبة إلى أرسطوطاليس.

19 نسبة إلى أبيقوروس.

20 الرواقية: مذهب فلسفي وضع أسسه زينون في أثينا حوالي العام 300 قبل الميلاد، ويتكون من آراء في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة، ومحوره الأخلاق، ويرى أن عقل الإنسان جزء من الطبيعة الإلهية، وتعزى مسحة الزهد في المذهب إلى التأثر بالفلسفات الشرقية، وسمي المذهب بالرواقية لأن زينون كان يلتقي بمريديه في أثينا في رواق معين معروف.

21 المدرسة الشكية المتأخرة: هي مدرسة يونانية حاولت الإفادة من التعاليم السفسطائية القديمة بنحو أكثر منهجية، فبحثت في مسائل الطبيعة والموقف المعرفي بصددها وصولا إلى الغاية العملية وهي الموقف الأخلاقي الذي هو الأساس لدى هذه المدرسة.

22 أبيقوروس (341–270ق.م): مواطن أثيني، أسس عام 306 ق.م. مدرسة فلسفية حيث كان يستقبل تلاميذه في حديقته الشهيرة، مثلت فلسفته أحد الأصول الأساسية لمذهب اللذة الأخلاقي؛ إذ جعل اللذة سبيلا إلى بلوغ حالة الطمأنينة السلبية والخلو المطلق من الألم، وضع أبيقور عدداً من الرسائل في الفيزياء والأخلاق لم يصلنا منها سوى بعض النصوص.

الرغبات الضرورية.[23] كما أن الأسباب الرئيسية لاضطرابات النفس هي المخاوف اللامعقولة في ما يتعلق بالآلهة والموت والجهل بالحدود الطبيعية للسعادة والألم.[24]

وهذا يشير إلى أن أحد أهم مظاهر أزمة الحرية كما طرحها الفكر الغربي هو الجهل وعدم معرفة الحدود التي ينتهي عندها أصلٌ ويبدأ عندها أصلٌ آخر، ومن ثم يفقد الإنسان القدرة على (الاختيار) بين المتغيرات الذي هو جوهر الحرية في مجال الممارسة الفعلية لمقتضيات الحياة، ومن ثم فقدان القدرة على الإحساس المباشر بالمسؤولية المترتبة على الاختيار الحر، وبالتالي يجد الإنسان نفسه في حالة اغتراب دائم عن ذاته.

ولعل هذا ما حدا بالمدرسة الشكية اليونانية المتأخرة إلى الإدعاء بأن الحل هو أن يتوقف الإنسان تماماً عن إصدار أي حكم من الأحكام في العالم، وعلى الإنسان أن يكتفي من أجل الحاجة العملية بالأقوال المحتملة والظنيات مما من شأنه أن يؤدي إلى إمكان العمل.[25] ويبدو أن هذا الحل يحمل في طيه الخلاص من مبدأ الحرية أصلاً باتخاذ حالة سلبية تمثلت في ضرورة تعليق كافة الأحكام. ولعل هذا المظهر المعرفي من مظاهر أزمة الحرية في الوعي الغربي كان يتسق ومحاولة هذا الوعي الغربي لاسترداد سياقه الفكري الطبيعي في مرحلة النهضة، عقب فترة العصور الوسطي التي حكمها آباء الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت، حيث ذهبوا إلى ضرورة تأويل تعاليم (الكتاب المقدس) لموافقة الرؤية الغربية في السيادة والسلطة وتنظيم المجتمع، في الوقت الذي كانت فيه تعاليم (الكتاب المقدس) – لا سيما (العهد الجديد) ما هي إلا تعاليم أخلاقية مجردة؛ أي غير مبررة بأحكام سببية إضافة إلى كونها سيرة حياة المسيح.

ويمكن الإشارة إلى السياق الفكري الطبيعي للوعي الغربي في مرحلة عصر النهضة وما بعدها بذلك التيار التجريبي الذي نشأ في إنجلترا علي يد فرانسيس بيكون[26] Bacon وثوماس هوبز، وديفيد هيوم[27]

---

23 Dewitt, Norman Wentworth. Epicurus and his Philosophy, Great Britain: Minnesota press,1954, p. 240.

24 ibid, p 226.

25 بدوي، عبد الرحمن. خريف الفكر اليوناني، ط 5، الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم، 1979، ص72

26 فرانسيس بيكون (1561-1626): فيلسوف ومفكر إنجليزي تجريبي، وضع المنهج العلمي الحديث على أسس تجريبية بحتة وحاول من خلاله تحطيم الأوهام التي تقيد العقل الإنساني جراء التفكير فيما يتجاوز التجربة والمنطق الإستقرائي، أشهر مؤلفاته (الأورجانون الجديد).

Hume، وجون لوك[28] Locke. ومجمل ما ذهبوا إليه أن الإنسان أسير لحواسه الطبيعة، وأن الوجود إدراك، وأن اليقين المعرفي مصدره الحس الذي يجعل بدوره هذا اليقين ذا صفة احتمالية. فكلٌ قد يري الحقيقة وفق متغيراته الحسية الذاتية؛ الأمر الذي حدا بمثل "هوبز" الفيلسوف الإنكليزي التجريبي ومن تابعه إلى افتراض دخول الإنسان في صراع مستمر ضد الإنسان الآخر، فلكل عالمه الذي يريد أن يفرضه، لذا فالكل في حرب ضد الكل. فكان لزاماً على "هوبز" أن يفرض بالضرورة قيداً على حرية الإنسان يكون دافعه الأساس تحقيق الأمن، وذلك بسحب كل ما لأفراد المجتمع من حرية بتعاقد يبرم فيما بينهم، ومنحها لشخص واحد يصير هو الحاكم، فتكون له السلطة المطلقة، باعتباره الفرد الحر الوحيد وكل باقي أفراد الشعب مجردين أمامه من كل حرية بنص التعاقد الذي أبرم بين أفراد الشعب وبعضهم، وليس بين أفراد الشعب والحاكم نص على التنازل التام عن كافة الحقوق الإدارية والسياسية وغيرها، وذلك في مقابل أن يحتفظ أفراد الشعب بنوع واحد من أنواع الحرية، وينبغي على الحاكم تحقيقه بالضرورة ألا وهو تحقيق الأمن فإذا أخل الحاكم بشرط تحقيق الأمن انفسخ العقد ومن ثم حق للشعب الثورة لإقامة التغيير.

وحتى على مستوي الفكر المثالي وضع "إيمانويل كانط"[29] Kant حدوداً للعقل المجرد ونشاطه حتى لا يتجاوز ما ينبغي له التفكير فيه، وقصر حرية التفكير العقلي على عالم الظواهر phenomena فحسب، أما الشيء في ذاته nomina فلا يمكن الحديث عنه وفق آليات العقل المجرد pure reason.

---

27 ديفيد هيوم (1711–1776) فيلسوف اسكتلندي تجريبي، انصبت معظم آرائه حول نظرية المعرفة، أدت به فلسفته إلى نوع من الشكية التجريبية فيما يتعلق بمفهوم السببية في العلم، أهم مؤلفاته ما كتبه عن الفهم الإنساني.

28 جون لوك (1632–1704): فيلسوف إنجليزي تجريبي، تحدث عن عناصر ومقومات الإحساس والتفكير والإدراك الإنساني من منظور تجريبي محض، كما بحث في الفلسفة السياسية ووضع تصوراً جديداً في نظرية العقد الاجتماعي، ألف في الفهم الإنساني وفي المفاهيم السياسية وفلسفة الدين.

29 إيمانويل كانط (1724–1804): ملقب بعملاق الفلسفة الألمانية، ولد وعاش ودرس في كونيجسبيرج بألمانيا، يعتبر من أتباع المذهب المثالي. تنصب أهم آرائه في تحديد ملكة العقل وفعاليته وقسمه إلى عقل محض وهو العقل المنطقي الحسابي الذي يتعامل مع الظواهر وفي حدودها، وبه تقوم نظرية المعرفة بالتقاء المعطيات الحسية مع الملكات والقوالب الذهنية والمقولات العقلية لتكوين الإدراك، وعقل عملي يكشف عن فاعلية الشيء في ذاته ويقيم نظرية أخلاقية تقوم على مبدأ الواجب، وملكة الحكم وتتعلق بالأحكام الجمالية، على هذه الأسس ألف كانط أهم كتبه إضافة إلى العديد من الكتب الأخرى في السياسة والميتافيزيقا وفلسفة الدين.

كذلك يجعل هيجل Hegel للإنسان حرية واسعة أمام تطور التاريخ؛ إذ إن التطور متوقف بصورة جبرية على مدى تحقق الروح المطلق في العالم تدريجياً بنحو ينقل التاريخ مرحلة تلو مرحلة. ومن ثم كان تقدم الوعي الإنساني رهيناً بتجلي الوعي الكلي المتمثل في الروح المطلق.[30] ولعل "هيجل" كان يضع قيداً معنوياً على حرية الإنسان ليسوقه بصورة حتمية نحو بلوغ نهاية التاريخ واكتمال تحقق (الروح المطلق) في مرحلة الدولة البروسية، ولعل ما كان قد جرى من أحداث في أوربا في العصور الوسطي يوضح أن القيد المعنوي هو أكثر إحكاماً وتأثيراً في سياسة الشعوب من القيد المادي.

ثم كان من ضمن المراحل المصيرية في تطور الوعي الغربي وتجلى فيها هذا الوعي بطابعه الحقيقي بصورة قد تكون اكثر وضوحاً من أي مرحلة أخرى، هي تلك المرحلة التي عرفت في الأدبيات الفلسفية بمرحلة فلسفات الحياة، والتي كان أبرز ممثليها الفيلسوفان الألمانيان "آرثر شوبنهور"[31] Schopenhauer "وفريدريك نيتشة" Nietzsche.

حدد "شوبنهور" منطلق صراع الحرية بمقولته: "العالم هو تمثلي، تلك هي الحقيقة التي تصدق علي كل الأشياء."[32] بهذا ذهب إلى أن الإرادة هي الحقيقة النهائية التي تبدو في كل ظواهر الوجود، فهذه الإرادة إذاً هي لديه منبع الشر في العالم، ذلك بأنها إرادة عمياء غير عاقلة، وهي اندماجٌ أعمي لا عاقل نحو الحياة، وليست الإرادة العمياء هذه هي واقع الإنسان فحسب، بل هي الحالة الجوهرية في عموم الطبيعة وكل ما هو في العالم وما الإنسان إلا جزءاً من هذا العالم الذي يسوده فعل الإرادة اللاواعية.[33] وتبعاً لهذا فان الإنسان يبقى دائماً في تحول مستمر من الرغبة إلى الإشباع ومن الإشباع إلى الرغبة، وهذا يتكرر إلى مالا نهاية أو إشباع نهائي، فنحن نشبه رجلاً يهبط من تلٍ جرياً ولا يستطيع الحفاظ على ساقيه إلا إذا استمر في الجري؛

---

30 جارودي، روجيه. فكر هيجل، ط 2، بيروت: دار الحقيقة، 1983، ص143 و144

31 آرثر شوبنهور (1788-1860): فيلسوف ألماني، من أتباع تيار فلسفات الحياة التي عبرت عن النزعة الرومانسية في أوروبا، تكلم شوبنهور عن العالم باعتباره تمثل ذاتي وإرادة تلك التي تعد السبب الحقيقي في شقاء الإنسان، لذا كان لا بد من الخلاص الذي رآه شوبنهور في الفن محققاً لفكرة الطمأنينة السلبية التي اقترحها فلاسفة اليونان. وصفت مؤلفاته بأنها من روائع الأدب الأوروبي.

32 انظر:

Schopenhauer, Arthur. The World as Will and Ideal, Translated by R.B. Hololence and J. Kemp, London: Rautledge & Kegen Paul Limited, 1948, p. 3.

33 بدوي، عبد الرحمن. شوبنهور، الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم، 1979، ص54

فمن المحتمل أنه سوف يسقط إذا توقف، وهكذا فإن عدم الراحة هو سمة الوجود. وحتى إذا قام افتراض بأن كل رغبات الإنسان قد تحققت فسوف تنتابه حالة من السأم والضجر. وهكذا تتأرجح الحياة بين الألم الذي تسببه الرغبة والإرادة، وبين السأم الذي يسببه إشباع الرغبة والإرادة.[34]

بهذا كان لا بد من وجود حالة من الخلاص على غرار تلك الطمأنينة السلبية أو (الأتراكسيا) وهي حالة الخلو من الألم التي قال بها فلاسفة اليونان من قبل، وكان تحقق هذه الحالة لدى "شوبنهور" يتم عن طريق الفن الذي يكون الإغراق فيه هو الخلاص في هذا العالم، حيث إن هذا المنظور الذي كان نتاجاً طبيعياً لتيار الوعي الغربي وإسهاماً فاعلاً به لا مكان فيه لافتراض عالم أخروي.

ثم كان ظهور "نيتشة" تلميذ "شوبنهور" الذي كان له أكبر التأثير في مجريات واقع الحياة في أوروبا منذ بدايات القرن العشرين. كان "نيتشة" يفترض أن الحرية لا تتحقق إلا في درجة وجودية أعلى من درجة الإنسان العادي وهي درجة الإنسان المتفوق superman الذي ينبغي –وفق "نيتشة"– أن يمضي فوق أشلاء الآخرين، ففئة الإنسان الأعلى هي فئة السادة الذين يتجاوزون كل القيود والمعتقدات والشرائع والقيم الخيرة، أما فئة العبيد فهم أولئك الذين ما زالوا أسري لقيم المسيحية من تسامح وإخاء وإيثار وفضيلة. لقد أعلن"نيتشة" ضرورة موت الإنسان العبد كما أعلن من قبل ضرورة موت الإله داخل الغابة التي خرج منها كفكرة لأول مرة في العهود البدائية، عندها يولد الإنسان السيد، الإنسان المتفوق بتاريخ جديد، متحرراً من كل قيد أخلاقي أو قيمي. وقد عبر "نيتشة" عن هذه التفرقة بين سادة وعبيد بما أسماه بالروح "الديونيزوسية" في مقابل الروح "الأبولونية"،[35] فالروح الأولي هي روح السكر والعربدة وروح الفزع والتوثب والانطلاق والشوق الغامر وروح الاندفاع والتمرد والثورة. أما روح "الأبولونية" فهي روح الوضوح والنور والنصاعة والاتزان، فالروح "الديونيزوسية" هي روح السادة لكونها روح الطبيعة الأولية التي تنبثق عن حضن الطبيعة فهي جماع غرائز الطبيعة وقواها [36]

---

34 توفيق، سعيد. ميتا فيزيقيا الفن عند شوبنهور، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 1983، ص65 و66

35 نسبة لأبولون وديونيزوس، وهما أسماء إلهية في الأسطورة اليونانية القديمة.

36 بدوي، عبد الرحمن. في الشعر الأوروبي المعاصر، ط 2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص161.

يمكن القول إن آراء "نيتشة" كانت المقدمة الطبيعية للمذهب الوجودي الذي ساد في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية وعلى وجه الخصوص الوجودية السارترية، كما كانت آراؤه من قبل الفكر الرسمي والإنجيل الجديد للحزب النازي في ألمانيا بقيادة "أدولف هتلر" مما يتسق معه القول بان آراء "نيتشة" هي التي أدت بالبشرية إلى كارثة الحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتها اكثر من أربعين مليون إنسان، إذ كان هتلر (Hitler) يري في ذاته منذ مراحل الشباب الأولي أنه هو ذلك الإنسان المتفوق أو الإنسان الأعلى الذي بشر به "نيتشه"، وأن الجنس الآري هو الجنس السيد الذي يحق له أن يسود على باقي أجناس العالم.

والشاهد أن رجل أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، بدلاً عن أن يرتد عن نمط الوعي الذي كان عليه، ارتد عن تلك المسببات للحرب التي أقحم فيها دون مبرر بأن أغرق نفسه في مزيد من المعتقدات التي تمضي بالوعي الغربي في تياره الطبيعي أكثر فأكثر على إثر آراء "نيتشه"، فكان أن سادت حتى بدايات حقبة الثمانينات من القرن العشرين المعتقدات التي أطلقها المذهب الوجودي،[37] ونزلت إلى إنسان الشارع العادي عبر روايات "جان بول سارتر" و"البير كآمي"، فكان التمرد الإنساني الشامل والدعوة إلى التحرر المطلق من كل قيد أو تقليد وحتى من قواعد العلم، وكان وراء هذا أن تحولت معادلة "ديكارت"[38] الشهيرة (أنا أفكر إذاً أنا موجود) إلى (كلما ازددت تفكيراً كلما تقلص وجودي)، فكانت فاتحة المجال إلى العدمية والعبثية في الحياة والأخلاق والفن وتحطيم العقل وإعلاء اللامعقول الذي هو الجوهر الحقيقي الأوحد للإنسان ومصدر مسئوليته، فكل إنسان فرد هو عالم خاص مستقل بقانونه الوجودي دون غيره من الأفراد، وكل تلك القواعد العامة التي تم وضعها من دين ومجتمع ومنطق ونظم قانونية واقتصادية وتشريعات للحقوق والواجبات، ما هي

---

37 المذهب الوجودي existentialism: مذهب فلسفي معاصر نشأ بتأثير الفينومينولوجيا الهوسيرليانية، وينطلق من مجموعة مبادئ أهمها: أن الوجود الفردي الذاتي سابق على الماهية الكلية، وإعلاء اللامعقول كوسيلة أساسية في تحقيق حرية الإنسان الفرد ومسئوليته، ومحاربة الأنظمة التي تفرضها ذوات الآخرين لذا كان الجحيم هم الآخرون, الحياة عبثية وعدمية وتخارج مستمر ولامعقول عن الذات. أهم ممثلى الفلسفة الوجودية: مارتن هايدجر (1889-1976) ألماني، وكان عضواً في الحزب النازي، أهم مؤلفاته (الوجود والزمان). جان بول سارتر (1905-1980) وهو فرنسي، أكثر الفلاسفة الوجوديين تأثيراً على أرض الواقع، أهم مؤلفاته (الوجود والعدم) وعدد من المسرحيات التي عبرت عن آرائه الوجودية وأنزلت الفكر الوجودي إلى إنسان الشارع العادي.

38 رينه ديكارت Rene Descartes (1596-1650): من أبرز أعلام الفكر الفرنسي والفلسفة الأوروبية الحديثة على وجه العموم، من أتباع المذهب المثالي، استخدم الشك منهجاً موصً لا لليقين, يعرف بأنه شطر الوعي الأوروبي بعده إلى شطرين وفصل بين النفس أو العقل والجسد، صاغ أهم آرائه الفلسفية على هيئة تأملات.

إلا قيد فرضها الآخر وأدت إلى اغتراب الإنسان عن ذاته وأنّها كانت نتيجة للصراع المستمر للحريات الوجودية للأفراد، فكان أن عادت مقولة "توماس هوبز" بأن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن الكل في حرب ضد الكل، وأن الجحيم هم الآخرون، بما في ذلك فكرة الإله نفسها التي ذهب أغلب الوجوديين إلى رفضها على نفس المنوال الذي أسسه كل من "نيتشه" و"فويرباخ" Feurbach في القرن التاسع عشر، وخلاصتها أن فكرة الإله ولدت من داخل الإنسان الأول جراء خوفه من الطبيعة الثائرة حوله فكان أن أخرج الإنسان عن ذاته فكرة أن هنالك بالضرورة كائن عظيم أقوى وأعلى من الإنسان هو الذي يحميه من عناصر الطبيعة التي هو جاهلٌ بها. وهذا ما أدى به إلى اغترابه عن حريته ومن ثم عن ذاته.

والآن إذا كانت المقولة الأساسية للوجودية هي أن الحرية هي عين ذات الوجود الإنساني فقد آن الأوان عند الغربيين أن يسترد الإنسان فكرة الألوهية التي أخرجها من عقله، وعلقها طويلاً على كائن وهمي خارج عن ذاته، وأدت به من ثم إلى الخضوع للاستغلال باسم الدين في العصور الوسطي على يد آباء الكنيسة. وقد عبّر "سارتر" عن ذلك في مسرحياته بأنه إذا كان ثمة إله قد خلق الإنسان فما كان له أن يخلقه حراً، فالحرية الإنسانية تقف على قدم المساواة في مقابل الفعل الإلهي، فان كانت الإرادة الإلهية تخلق من عدم فإن الحرية الإنسانية لا تخلق من عدم، إنما هي تحيل إلى عدم. فليست الحرية في صميمها قوة خالقة أو مبدعة إنما هي قوة هادمة أو معدمة. ومعنى هذا أن الحرية البشرية وثيقة الصلة بكل معاني السلب والنفي والهدم والشر والموت والعدم والفناء.[39]

ولعل أصل ذلك الاتجاه الوجودي ما ذهب إليه "مارتن هايدجر" M. Heidegger بقوله إن الصفة الأساسية للحرية الإنسانية هي أن الإنسان كان ويكون دائماً في حالة تخارج مستمر عن ذاته، واصطلح على ذلك بتعبير (Da-Sein)؛ أي (الوجود–هناك) فما أن يوجد الإنسان في نقطة من نقاط اكتشاف الوجود الذاتيbeing وخلق الماهية essence حتى يخرج عنها إلى نقطة مغايرة بفعل التجادل المتصل مع كل عناصر الوجود من حوله. فالرؤية الكونية للمذهب الوجودي existential

[39] إبراهيم، زكريا. مشكلة الإنسان، القاهرة: مكتبة مصر، ص43 و44

worldview، هي أن الوجود سابق على الماهية، والذات سابقة على الموضوع، والخاص سابق على العام، فلا مبرر بالتالي للخضوع لأي قيد عقلي أو ديني أو اجتماعي.[40]

لقد انعكست هذه المعتقدات الوجودية على المظهر العام للحياة وسلوك الأشخاص في عموم أوروبا وأمريكا. فبدلاً عن التقاليد المحافظة التي اتسم بها إنسان أوروبا سادت حالة من الرغبة في تحطيم كل ما هو قديم وتقليدي ومحافظ، فحتى على مستوي المظهر العام كان الرجل الأوروبي فيما قبل الحربين يلتزم في معظم المحافل بنظام الزي الرسمي الكامل full-suit ورباط العنق فتمرد على ذلك بارتداء القميص الضيق والصدر المفتوح والبنطال المخلق لطبيعة الجسد بضيقه الشديد في الوسط ووسعه البالغ عند أسفل الساق وتكثيف الشعر بغير نظام وحلق اللحية إلى منتصف الوجه فلا هي حليقة تماماً ولا هي مرسلة، والمرأة الأوروبية التي كانت تلتزم باللباس الفضفاض البالغ الطول تمردت على ذلك إلى النقيض بارتدائها (آلميني جيب) و(الميكروجيب) نحو ذلك. وفى مجال الفنون استبدلت السيمفونية الكلاسيكية في الموسيقى التي عبرت عن الحياة الجادة والمحافظة في أوروبا بموسيقي (الروك أند رول) والجاز وهستريا الرقص المحموم التي صاحبتها، كما ظهرت الاتجاهات العبثية والسريالية في الفنون التشكيلية.

كل تلك المظاهر إن هي إلا محاولة الإنسان في الغرب إثبات حريته أمام ذاته بمخالفة كل ما درجت عليه العادة من قبل، ولكن سرعان ما أدخلته تلك الحالة إلى أزمة جديدة بان تحولت الحرية إلى تحلل كامل، مما أدى إلى ازدياد حالات الشعور بفقدان قيمة الذات وعبثية الحياة، ومن ثم فقدان الرغبة في الحياة وارتفاع نسبة معدلات الانتحار بمختلف أشكاله. فكان على الوعي الغربي أن يعود من جديد إلى وضع حل لأزمة الحرية التي يعانيها فظهر الاتجاه البنيوي[41] structuralism يدعو إلى عودة مفهوم الإطار النسقي المنظم

---

40 انظر:

Heidegger, Martin. Being and Time, Translated by: John Macquarri, Edwand Robinson, Oxford: Blackwell, 1967, p. 36 - 41.

41 البنيوية: تيار فلسفي منهجي ازدهر في النصف الثاني للقرن العشرين، نادى به أصحابه كمنهج لتحليل وتأليف اللغة والثقافة والأسطورة والفن والدين، ينطلق من فكرة النسق أو النظام system ويعتمد مجموعة من القواعد الحاكمة مثل: الكل والعلاقات سابقان على الأجزاء ومبدأ التزامن في مقابل النظرة التاريخية والتحولات للعناصر ومبدأ التنظيم الذاتي. من أهم أعلامه: جان بياجيه (1896-1980) عالم النفس السويسري، فيرديناند دوسوسير (1857-1913) الألسني السويسري.

system فيذهب "جان بياجيه" السويسري في تفسير مفهوم (البنية) إلى أنها نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقاً وذلك في مقابل الخصائص المميزة للعناصر، علماً بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائماً ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق. كذلك يذهب "كلود ليفي شتراوس" Claude Levi-Strauss إلى أن البنية تحمل أولاً وقبل كل شئ طابع النسق أو النظام، فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى.

وقد مثلت البنيوية ردة الفعل التي حاولت إلغاء الوجود الإنساني الفرد –الذي دعت إليه الوجودية– وتقرير أن حرية الفرد الإنساني تتحدد بكونه عنصراً في نسق منتظم كلي، فكانت هذه محاولة للخروج من الأزمة التي نتجت عن الاتجاه الوجودي، ولكن هذا الحل نفسه قد أدى إلى أزمة في مجال (علم التحكم)[42] cybernetics بعدم ضبط مدى القدرة على محافظة التحول والتنظيم الذاتي، وتفسير أصل خلق الكيان البنائي المعين، ومن ثم الوقوع في افتراض إلغاء العقل كدور فاعل، والسقوط في الجبرية المطلقة؛ الأمر الذي أدى إلى اتساق الوعي الغربي مرة أخري بظهور ردة الفعل المعاكسة للاتجاه البنيوي والتي تمثلت في ما عرف بالتفكيكية[43] deconstructionism التي نشأت في فرنسا عند أشهر ممثليها "دريدا" J. Derrida و"دولوز" G. Deleuse، وكانت قد هدفت إلى ضرب ما اصطلحوا عليه (بالمركزية العقلية).

وتفكيك هذه المركزية العقلية –التي تعني لديهم الاهتمام بالحقيقة والعقل والمنطق– إنما يتم عبر الوسيط اللغوي، بجعل اللغة حصيلة من العلامات signs لا تنتمي إلى نسق أو نظام، وهو ما أسموه باللعب الحر بالدوال الذي يجعل كل نص يبدأ من الصفر، الأمر الذي أدى بالوعي الغربي إلى بلوغ منتهى العدمية والعبثية وعدم الانتماء. والتفكيكية في هذا تختلف عن(التحليلية)، فالتحليلية هي النظر إلى الجزئيات والعلامات المفردة والوحدات الصغرى للكل وفهمها في إطار سياق يمنح العلامة دلالة معينه، وفق قصد

---

42 علم التحكم (السيبرنتيك): أسسه نوربيرت وينر N. Wiener، وهو يقوم على دراسة إدارة ونقل المعلومات بما يحقق التحكم البيولوجي والفيزيائي والكيميائي لأنظمة الطاقة، ومن ناحية تاريخية، كان السيبرنتيك متداخلا مع النظريات الرياضية للمعلومات والاتصال والحواسب الآلية.

43 التفكيكية: حركة عدمية معاصرة نشأت في مقابل البنيوية، أقامت بحوثها على تحليل اللغة، أهم روادها جاك دريدا (1930–) فرنسي، جيل دولوز (1925–)

استخدام معين. أما التفكيكية فهي هدم كامل لكل سياق وليس تحليلاً له.[44] على هذا أصبح المهم في التفكيك ليس هو الإبداع المركزي بل تهميش الإبداع، والبحث عن المركز في الأطراف، لهذا فعل "دريدا" ما فعله "ميشيل فوكو"[45] M. Foucault من قبل، في بحثه عن تاريخ الجنون وليس تاريخ العقل؛ تاريخ المرضى وليس تاريخ الأصحاء؛ تاريخ العيادات النفسية، وليس تاريخ مراكز الأبحاث العلمية، وذلك من أجل قلب العلاقة بين الأطراف والمركز، بين السلب والإيجاب، بين الهوية والاختلاف. لذلك كان التفكيك ضد التمثل؛ أي إعادة رسم الموضوع في الذهن، وضد التمثيل أي إعادة النص على المسرح. ويعلن "دريدا" نهاية مسرح التكرار وبداية مسرح القوة، نهاية التسطيح وبداية عنف الدلالة، نهاية المعني وبداية القوة معلناً الانتقال من عصر (أنا أفكر) إلى عصر الجنون، ومن الميتافيزياء إلى العنف، ومن الكلام الخارجي إلى النفس الباطنة، وهو العودة بصورة مباشرة مرة أخرى إلى "نيتشة" و"الوجودية" ولكن على نحو أكثر تمرداً وعدمية. [46] ولعل التفكيك بهذا –بعد فشل فكرة إقامة بنية واقعية شاملة– كان مؤشراً لضرورة تجاوز تلك القوالب اللغوية والفكرية التي بلبل وشتت بها الرب المذكور في (العهد القديم) ألسنة الناس، فالتفكيك هو التحرر الذي قد يحل الأزمة التي فرضتها البنيوية ومن قبلها محاولات الوضعية المنطقية[47] logical positivism المعاصرة في بناء لغة مثالية[48] ideal language بقصورها عن الرد نحو حالة الوحدة التي كان عليها الإنسان في وصف (العهد القديم) عند حديثه حول بناء برج بابل.

---

44 انظر: مناظرة سورل–دريدا. "التفكيك أو اللغة في مختلف وضعياتها"، ترجمة مصطفي حنفي، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، السنة التاسعة، 2000، ص195–213.

45 ميشيل فوكو (1926–1984): فيلسوف نقدي فرنسي، تميز منهجه بما يعرف بالأركيولوجيا المعرفية.

46 حنفي، حسن. مقدمة في علم الاستغراب، بيروت: دار التنوير، ص432 و433

47 الوضعية المنطقية: حركة فلسفية نشأت في فينا جراء اجتماع عدد من العلماء، واتفقوا على مجموعة من المبادئ الفلسفية– المنطقية بصدد ضبط اللغة المتداولة بنفس درجة الدقة التي للغات العلمية، فقسموا كل ما يمكن أن يفكر فيه الإنسان إلى دائرتين: القضايا التقريرية التجريبية وهي ما يمكن الحكم عليها بالصدق أو بالكذب باعتبار أن لها معنى، وقضايا ميتافيزيائية وشعورية وأخلاقية لا يمكن الحكم عليها بصدق أو بكذب، لأنها فارغة من المعنى أصلا ولا تقبل التحقق تجريبياً.

48 اللغة المثالية: هي في مقابل اللغة العادية أو الطبيعية، وهي لغة صناعية تصاغ على منوال العلاقات الرياضية والوقائع التجريبية لضبط اللغات المستخدمة في الحياة اليومية وتوحيد معانيها ودلالاتها برغم تعددها واختلافها. قال بها كل من فيتجنشتاين ورسل والوضعيين المناطقة.

ثالثاً :اتجاهات النظريات العلمية الطبيعية والصورية

منذ "أرسطوطاليس"[49] تواصلت محاولات بناء النموذج الشامل للتفكير، وذلك بتأويل الأحوال الطبيعية والسنن الكونية تأويلاً يضع القوالب العامة المجردة والتي تمثلت في ضروب القياس[50] syllogism وأحكام القضايا من جهة الصدق truth والكذب falsehood بحسب تصنيفها في حدود كلية وجزئية. ولعله كان أمراً ضرورياً نسبة إلى أن أي كيان اجتماعي أو نظام إداري أو برنامج إنساني عام لا يمكن أن يقام إلا بوضع تلك الأطر الصورية للأحكام وأفعال القول.

هذا وقد بلغ هذا التأويل المنطقي –الذي امتد منذ "أرسطوطاليس" وحتى النصف الأول من القرن العشرين، والذي عرف اصطلاحاً بمنطق القيم الثنائية valued logic– مرحلة النضج مع النتائج الطبيعية التي توصل إليها "نيوتن" فيما عرف بمجال (الفيزياء الكلاسيكية) التي تقرر فيها أن هناك دائماً وحدات نهائية للتحليل، وأن الذرة atom هي الوحدة النهائية لتحليل المادة، وأن المادة عينها هي حالة كتلة mass وهذا يجعلها تنفصل عن العنصر الكوني الآخر وهو الطاقة energy، كما تقرر أن طبيعة الحركة هي نظام الموجة wave المتصلة، بحيث ينتقل الجسم من نقطة معلومة إلى نقطة معلومة أخرى بقياس مكاني دقيق ومحدد. وقد كان ذلك منسجماً مع إصدار الحكم الخاص بموقع الكائن وحالته على الأبعاد المكانية الثلاثية المعروفة فحسب.[51]

يمكن القول من ثم إن هذه النتائج للتصور الكوني للفيزياء الكلاسيكية قد أدى إلى أعلى مستوى من التأويل الفلسفي العلمي وفق تيار الوعي الغربي، وأن هنالك نظاماً كونياً صارماً في حركته وفي تفسيره، يقابله

---

49 أرسطوطاليس (184–322ق.م): فيلسوف يوناني يعد أكثر الفلاسفة القدماء شهرة وإنتاجاً، توزعت أعماله على المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة والفن واشتهر بالمنطق الصوري (القياس) الذي رأى فيه آلة لجميع العلوم.

50 القياس: هو أسلوب الاستدلال المنطقي الذي أسس له ارسطوطاليس وطوره من أتى بعده من فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين، ويتألف من عدد من المقدمات تلزم عنها نتائج بالضرورة، فهناك المقدمة الكبرى التي تحتوي على الحد ذي المفهوم الأكثر اتساعاً ثم المقدمة الصغري التي تحتوي على الحد ذي المفهوم الأضيق اتساعاً، ويربط بين المقدمتين حد أوسط يتكرر في المقدمتين ويختفي في النتيجة، ويتوزع القياس على أربعة أشكال بحسب وضع الحدود وتتوزع الأشكال إلى عدد من الضروب بحسيب مقاييس الكل والجزء.

51 انفيلد، ليوبولد وأينشتاين، ألبرت. تطور الأفكار في الفيزياء من المفاهيم الأساسية إلى نظريتي النسبية والكم، ترجمة أدهم السمان، دمشق: وزارة الثقافة، 1986، ص59–62.

نظام منطقي عقلي صارم يضبط حركة التفكير الإنساني في حدود قاطعة، وهو ذلك النظام المنطقي الذي يضع كافة أحكامه في صيغ الصدق والكذب. وقد اتفق هذا والقول بمبدأ الحتمية determinism المطلقة في العالم، التي كان من شأنها أن يقتصر منطق القيم الثنائية هذا على مستوى دلالي ذي بعد واحد هو البعد التجريبي، يتم فيه تصنيف مجمل العلاقات relations بما يلائم دوال (الاقتران) و(البدل) و(التضمن المادي) و(التكافؤ)، بحيث تخضع هذه العلاقات لقوائم صدق truth tables ثابتة تم تطويرها تدريجيا منذ ليبنز[52] Leibnez وبوول[53] G. Boole، ورسل[54] Russell، وهوايتهد[55] Whitehead، وفيتجنشتاين[56] L. Wittgenstein.[57]

على هذا الأصل تأسس الفكر الوضعي كسياق ضروري في تطور الوعي الغربي، مقرراً أنه ليس هنالك حرية متاحة للإنسان إلا بقدر ما تمليه عليه الظروف الواقعية، فليس للإنسان من الحرية ما يجعله ينطلق بخياله إلى ما وراء الطبيعة metaphysics؛ إذ أن الخيال نفسه مقيد بعناصر الطبيعة التي هي المصدر الوحيد للخبرة المعرفية للإنسان. وهذا يتضح في نظر الوضعيين من التحليل الأولي لأي من نتائج هذا الخيال بأنه يتألف من حدود لا خروج عنها، تتمثل على سبيل المثال في مفاهيم الاستقامة والاستدارة والانحناء والانكسار والطول والعرض والعمق وما إلى ذلك.

---

52 جوتغريد فيلهلم ليبنز (1646-1716): فيلسوف مثالي وعالم رياضيات ألماني، صاحب نظرية المونادات أي تقسيم العالم إلى ذرات روحانية، أسهم إسهاماً مقدراً في تطوير المنطق الصوري نحو الصياغة الرياضية.

53 جورج بوول: رياضي ومنطقي إنجليزي، من مؤسسي المنطق الرياضي الحديث، صاغ قياساته المنطقية في صورة جبرية.

54 بيرتراند رسل (1827-1970): منطقي ورياضي وفيلسوف إنجليزي، طور مع هوايتهد المنطق الرياضي بصورته الراهنة، أسهم في مجال فلسفة اللغة والمنطق بنظريتي الأنماط والأوصاف، له آراء ثرة في السياسة والأخلاق ونظرية المعرفة.

55 الفريد نورث هوايتهد (1861-1947): رياضي ومنطقي وفيلسوف علم إنجليزي. ساهم مع رسل في تطوير المنطق الرياضي، تتسم فلسفته في الوجود بطابع ميتافيزيائي.

56 لدفيش فيتجنشتاين (1889-1951): فيلسوف إنجليزي من أصل نمساوي، يعد من أكثر الفلاسفة المعاصرين تأثيراً وشهرة، مرت فلسفته بمرحلتين: المرحلة المبكرة حاول فيها تأسيس اللغة المنطقية المثالية، المرحلة المتأخرة اتجه فيها إلى وضع قواعد لتحليل اللغة العادية ومهد ذلك لظهور مدرسة أكسفورد.

57 Kneal, W. & Keal, M. The Development of Logic, Oxford University Press, 1962, pp.479-490.

هذا ما حدا بالوضعيين في نهاية المطاف إلى محاولة بناء عقل جمعي شامل يتوحد فيه البشر كافة بحد سواء، فتواضعوا على ما عرف بمبدأ التحقق principle verification وهو التمييز بين القضايا التي لديها معنى، وهي فئة القضايا التجريبية التي تكون إما صادقة أو كاذبة، وبين تلك القضايا الميتافيزيائية والقضايا الشعورية والعاطفية والأخلاقية والجمالية التي لا يمكن الحكم بصددها بصدق أو كذب، فهي إذن قضايا ليست ذات معنى أصلاً، ثم تقرير ما عرف بالنظرية التصويرية للغة التي حددت حركة التعبير اللغوي ومن ثم العقلي، في وجود قضايا أولية elementary propositions مؤلفة من أسماء nouns تقابل في العالم وقائع ذرية atomic facts مؤلفة من أشياء things وهكذا فما لا نستطيع الحديث عنه ينبغي علينا أن نصمت بصدده."[58] ذلك هو مبدأ الموضوعية المطلقة التي افترضها التأويل الوضعي التجريبي للعالم، محدداً بذلك إطار ما يحق له، دون مراعاة للعناصر الذاتية ودورها في تأكيد حرية الإنسان ورسالته في أعماق الأرض بمسئولية كاملة، كل هذا في سبيل تحقيق لغة منطقية مثالية تعيد للإنسان وحدة (المعنى) التي فعلها عنه الرب كما أنبأ (العهد القديم) حتى لا يصير للإنسان في وحدته هذه قوة كقوة الآلهة.

وكان من أبرز النتائج السالبة لهذا الاتجاه هو تطبيق مبادئ المادية الجدلية بالكيفية التي كانت عليها في مناطق شرق أوروبا وآسيا، الأمر الذي أدى إلى توقف تفسير الحقيقة العلمية عند حدود التصور الطبيعي الكلاسيكي والتمييز بين قانون لحفظ الطاقة وقانون لحفظ الكتلة وفق الاعتبارات التقليدية في مفهوم المادة، ومن ثم تفسير التاريخ الإنساني باعتباره سلسلة من البناءات الحتمية والوقائع الضرورية في انتقاله من مرحلة إلى مرحلة لاحقة، حيث لا مجال للقول بأي نوع من الإرادة الإلهية في تسيير حركة التاريخ، ولا حتى نوع من الإرادة الإنسانية في ذلك؛ فليس أمام الإنسان القائم في المرحلة الاشتراكية التي شعارها (لكل حسب عمله) إلا أن يضحي تضحية غير ذات مقابل في عالم دنيوي أو أخروي، ليأتي إنسان المرحلة الشيوعية العظمي بعد جيل أو جيلين من وفاة ذلك الأول ليعيش جنة الله علي الأرض التي بشر بها "كارل ماركس" Marx

58 Wittgenstein, L. Tractatus logico philosophicus, London: Routledge & Kegan Paul, parag. 7.

وفريدرش انجلز F. Engels،[59] تلك المرحلة التي يتحول الشعار فيها ليصبح (لكل حسب حاجته)، ولتصبح أيضاً الإجابة عن السؤال: ماذا بعد الشيوعية؟ هي (مزيداً من الشيوعية).

إلغاء الإرادة والحرية أمكن أن يكون تفسيراً لتلك الثورة النفسية في مطلع التسعينات في القرن العشرين ضد الأنظمة الشيوعية جراء الثغرة التي فتحها الرئيس السوفيتي الأخير "جورباتشوف" بمؤلفه الإصلاحي (البيروسترويكا) أو إعادة البناء.

أما السياق الآخر للتأويل العلمي في تطور الوعي الغربي فقد كان نتاجاً لنظريتي النسبية relativity وميكانيكا الكم quantum mechanics، اللتين قررتا إضافة البعد الزماني إلى الأبعاد المكانية الثلاثة في الفيزياء الكلاسيكية بوصفها محددات أساسية في الحكم بصدد أي كائن. كما تحقق التوحيد بين قانوني حفظ الطاقة وحفظ الكتلة على اعتبار أن المادة ما هي إلا طاقة مكثفة وللطاقة كتلة، ومن ثم تلاشى مبدأ (الحد النهائي) في التحليل واختلف مفهوم المادة اختلافاً جذرياً.[60] قرر "اينشتاين" هذا بقوله (لا ريب أننا لا نستطيع حتى الآن أن نتصور أن الفيزياء كلها لا يمكن أن تبنى على مفهوم المادة كما يظن فيزيائيو أوائل القرن التاسع عشر)،[61] فظهر بذلك افتراض لمجال آخر وهو مفهوم الحقل field الذي هو التركيز الشديد للطاقة في حيز صغير نسبياً، وهو ما يتيح توزيع الطاقة بنسب معينة في مدي معين.[62] كذلك ذهب كل من ماكس بلانك Blank وبروجلي Brogli ونيلز بور Bohr إلى الحكم على الطاقة في مستوى الميكروكوزم[63] microcosm بأنها لا تتغير دائماً بطريقة مستمرة، وإنما هي عبارة عن كموم إشعاعية quanta يتألف كل (كم) منها من عدد غير محصور من الجسيمات elements، ولا يمكن قياس الطاقة الإشعاعية إلا عبر تصنيف (الكموم) وليس الجسيمات؛ إذ أن الجسيم هو فرد لا يمكن معرفته أو الحديث عنه إلا في إطار (الكم) الذي ينتمي إليه،[64] وذلك على غرار المثال الذي ضربه "زينون الايلي"[65] Zeno

---

59 كارل ماركس (1818-1883) وفريدريك إنجلز (1820-1895): فيلسوفان ألمانيان أسسا المادية الجدلية والمادية التاريخية.

60 اينشتاين، انفيلد. تطور الأفكار في الفيزياء، ص258-269

61 اينشتاين، انفيلد. المرجع السابق، ص255

62 اينشتاين، انفيلد. المرجع السابق، ص255-257

63 المكروكوزم. الكون الصغير.

64 اينشتاين، انفيلد. المرجع السابق، ص298

فيما قبل الميلاد دفاعاً عن آراء أستاذه "بارمنيدس"[66] Parmenides في قوله بنفي الكثرة والحركة وهو: أن حبة القمح بمفردها إذا ألقيت على الأرض لا يخترق صوتها عتبة السمع لدى الإنسان فهي إذاً لا تمثل وجوداً بالنسبة إليه، أما إذا ألقي جوال القمح بأكمله فإنه يحدث صوتاً عالياً يبلغ من الشدة ما يخترق به عتبة السمع مثبتاً بذلك وجوده والوعي به.

كذلك يمكن ملاحظة أن فكرة الكموم هذه قد أدت إلى إثبات نظام الحركة بصورة مغايرة لما تصورته الفيزياء الكلاسيكية، فالحركة لا تتم بطريقة الموجة المتصلة وإنما بطريقة الدفعات المتقطعة على هيئة مقادير منفصلة كطلقات المدفع الرشاش.[67] وهذا ما يجعل من غير الممكن التنبؤ بصورة قطعية بمنتهى الحركة وغايتها.

وقد كان من النتائج الفلسفية لهذه النظريات أن تم الاصطلاح على مفاهيم جديدة مثل: دور الملاحظ the role of observer، وسقوط السببية collapse of causality، وحرية إرادة الإلكترون free will of electron، إذ لوحظ أن الإلكترون في مداره حول نواة الذرة إنما لا يخضع لقانون فهو يبدأ مداراً ثم يخرج عنه دون سابق إنذار ودون تبرير معلوم ليبدأ مساراً جديداً وهذا ما أدى إلى إمكان القول بعدم خضوع عالم الجسيمات الدقيقة لقانون سببي، وقد عبر عن هذا (فيليب وانك) في كتابه عن فلسفة العلم بقوله أن الفيزياء المعاصرة قد تعرضت لتفسير ميتافيزيائي وطبقاً لهذا التفسير يعد الإلكترون ناتجاً عن قوة روحية، كما أنه في قفزة من مدار إلى مدار إنما يمارس عملاً من أعمال الإرادة الحرة.[68]

وكان من أبرز الآراء التي وجهت هذا التأويل وجهة تتسق مع الموقف الراهن للوعي الغربي بصدد الحرية، وهو ما عرف بمبدأ الارتياب uncertainty principle لدى العالم الفيزيائي الألماني هايزنبيرج "W. Heisenberg". ويقضي هذا المبدأ بأننا لكي نعرف الموقع المستقبلي وسرعة جسيم ما بشكل

---

65 زينون الأيلي (490 ق.م): مفكر يوناني، حاول إثبات آراء أستاذه بارمنيدس في القول بنفي الكثرة ونفي الحركة وأعطي على ذلك حججاً منطقية مما جعل ارسطوطاليس يعتبره مؤسس الجدل.

66 بارمنيدس (540-450ق.م): فيلسوف يوناني مثالي، رفض الحس كوسيلة للمعرفة وجعله طريق الظن وجعل العقل طريق اليقين، كما نفي الكثرة والحركة في العالم.

67 جينز، سير جيمس. الفيزياء والفلسفة، ترجمة جعفر رجب، ط 2، بيروت: دار التنوير، 1978، ص154.

68 الموصلي، سامي احمد. الأسئلة الخالدة، بغداد: مطابع التعليم العالي، ص45-47

مسبق يجب أن نتمكن من قياس موقعه الحالي بدقة تامة، والطريقة الجديرة لذلك هي أن نسلط الضوء على الجسيم، وهذا يبعثر بعض موجات الضوء التي تدل على موقعه، إلا أنه ليس من الممكن تحديد موقع الجسيم بدقة أكثر من قدر المسافة بين رؤوس موجات الضوء –أي قممها – وبالتالي علينا استخدام ضوء ذي موجات قصيرة لقياس موقع الجسيم بدقة. وبموجب فرضية "بلانك" للكم لا يمكن استخدام كمية اعتباطية ضئيلة من الضوء بل على الأقل كماً quantum واحداً، وهذا الكم سوف يعوق الجسيم ويغير سرعته بشكل لا يمكن التنبؤ به، أضف إلى ذلك أنه كلما كان قياس الموقع دقيقاً كانت أطوال موجات الضوء المطلوبة للكم أقصر، وبالتالي كلما كانت الطاقة أكبر للكم الواحد من الضوء يكون تأثر سرعة الجسيم بمقدار أكبر؛ أي كلما أردنا قياس موقع الجسيم بدقة أكبر كلما تناقصت دقتنا في قياس سرعته والعكس بالعكس.

هكذا يبلغ مفهوم الحرية في الوعي الغربي إلى قمة حالات الأزمة بأن ترسيخ المبدأ الأصيل في الوعي الغربي عموماً –وهو أن الطبيعة هي التي تقود الإنسان– إلى الدرجة التي أوصلت الإنسان في الغرب إلى تحقيق (أسطورة سيزيف)[69] عليه، بأن يصل هذا الإنسان إلى أعلي درجة فيتبين أن جهله هو الذي يتسع وليس علمه. فإذا كانت الطبيعة وفق النظريات العلمية المعاصرة قد أصبحت تتصف بنقيض تلك المبادئ التي بنى عليها علماء الغرب ومفكروه تبعيتها للطبيعة بنحو أو بآخر من موضوعية وسببية وحتمية وقدرة على التنبؤ العلمي، فقد أصبح الإنسان الغربي من ثم يدعو إلى نقيض ما كان قد دعا إليه في المرحلة الوضعية التجريبية، بداءً من محاولة إيجاد منطق جديد مغاير لذلك النسق القديم (أي منطق القيم الثنائية) بعد إثبات قصوره عن مواكبة المتغيرات العلمية في تفسير نظام الكون، وأصبح الموقف الراهن هو أننا لا نعرف الحدود النهائية حتى نضع أحكاماً قاطعة بالصدق أو الكذب، فكان هذا النظام المنطقي الجديد والذي عرف بمنطق القيم المتعددة[70] many valued logic.

---

69 أسطورة سيزيف: اسطورة يونانية قديمة تقول بأن الآلهة غضبت على سيزيف وحكمت عليه بأن يمضي عمره في أن يحمل صخرة ثقيلة ويصعد بها إلى أعلى قمة الجبل فإذا بلغها سقطت الصخرة مرة أخرى إلى سفح الجبل فيرجع مرة أخرى لمعاودة الكرة وهكذا دوليك.

70 منطق القيم المتعددة: هو نسق منطقي معاصر في مقابل منطق القيم الثنائية، وهو ينطلق من عدم الاقتصار على قيم الصدق والكذب كقيم منطقية وحيدة للحكم على القضايا ويفترض وجود قيم أخرى متعددة بين الصدق والكذب، ومنه أنساق القيم الثلاثية والقيم الرباعية والقيم الامتناهية Multi–valued.

وقد استند هذا النظام فلسفياً على ما قرره "هانز رايشنباخ" Reichenbach في حديثه عن فيزياء الميكروكوزم من أننا نستطيع أن نتصور عوالم مثلما يحدث في خبرة الماكروكوزم[71] macrocosme experience، حيث يكون من المستحيل فيها فيزيائياً التحقق والتكذيب لقضايا تجريبية معينة، وذلك فقط لأن أي قضية —في خبرة الميكروكوزم– نعتبرها قضية مكتملة فإنها تبدو على الأقل محتمله التحقق أو التكذيب.[72]

من هنا ظهر ما يعرف بمنطق القيم المتعددة كمنطق لا معياريnonstandard logic يتيح قيماً أخرى لا تقرر العلم القاطع المتمثل في الحكم المقتصر على الصدق والكذب في المنطق الثنائي القيم الموافق لمقررات الفيزياء الكلاسيكية، فأصبح منطق القيم المتعددة في إطار صياغات الحساب المنطقي logical calculus هو الاقتراح البديل لمنطق القيم الثنائية التقليدي لتفسير وتطبيق مقررات ونتائج (ميكانيكا الكم) بكونه يفرض قيماً محايدة تدل علي مناطق الوعي الغامضة وغير القابلة للفصل فيها بحكم قاطع بالصدق أو الكذب، الحق أو البطلان.[73] الأمر الذي أظهر أن جل الأساس المعتمد عليه في إقامة منطق للقيم المتعددة هو أساس سمته الجوهرية نقص وقصور الوعي عن إدراك الوجود على نحو كلي في لحظة زمانية حاسمة.

فمنطق القيم المتعددة إنما هو إفساح المجال لمساحة الفاقد المعرفي في الوعي البشري وإظهار عنصري الاحتمالية والنسبية على الأحكام كضرورة منطقية مؤادها عدم القدرة على التنبؤ العلمي القاطع بتحول الظواهر في اللحظة المستقبلية وفق القواعد والمعايير العلمية الراهنة من جهة، ومن جهة أخرى عدم قدرة العقل البشري على الإيفاء بجميع العلاقات السببية المعقدة التي تربط الظاهرة موضوع الحكم بظواهر الكون الأخرى على شدة اختلافها وتنوعها وكثرتها في لحظة الحكم. إذن –فمنطق القيم المتعددة– نابع من اعتراف

---

71 الماكروكوزم، الكون المتسع.

72 هوكنج، ستيفن. موجز في تاريخ الزمان من الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء، ترجمة عبد الرحمن حيدر، مراجعة محمد دبس، بيروت: أكاديمي، 1990، ص75

73 Reichenbech, Hans, Philosophic Foundation of Quantum Mechanics, University of California, 1944, pp. 29, 30.

البشر بقصورهم الذهني المجرد. وربما يشير إلى ذلك قوله تعالي: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا.﴾ (يونس: 36)

من جهة أخرى، كان لظهور هذا النظام المنطقي الجديد –والذي تعددت الأنساق في داخله بدرجة كبيرة– هو فاتحة الطريق لرؤى جديدة بصدد تفسير العقل والفعل الإنساني وعلاقته بالعالم، فعلى المستوى الدلالي في الاتصال قام التساؤل حول إمكانية تصور علاقة مباشرة بين الكلمة word وموضوع ما؛ فيقرر "فيتجنشتاين" أن ليس هنالك مرجعاً دلالياً مباشراً للكلمة؛ إذ تتحد معاني الكلمات حسب اختلاف السياقات المستخدمة فيها، أي ليس هنالك حد صارم للمعاني، بل تتألف المعاني وفقاً للظروف والأحوال التي تستخدم فيها مما يستتبع أن لا تكون اللغة صيغاً مجردة تخلق بمعزل عن الوقائع. فاللغة في هذا الأصل هي كل ما يمكن أن يشار به إلى موضوع ما يمثل تصوراً لواقعة كونية. وعلى هذا يصبح منطلق الفهم للعملية اللغوية هو من الدلالة وليس من اللفظ المجرد وهذا لا يمنع تحقيق ما يمكن تسميته "مبدأ الاستعارة اللغوية" بأن يتم تعدد كيفيات استخدام المفردات اللغوية حسب طرق الحياة طالما أنها ستؤدي إلى إطلاقها على وقائع تخضع لذات الشروط الإدراكية الموضوعية للوقائع الكونية في مجملها.

وليس الأمر أن تتعدد كيفيات استخدام الألفاظ اللغوية، إنما الأمر هو الإشارة إلى وقائع تمثل دلالات موضوعية. ولن نخرج بالتالي بحال من دائرة أن اللغة هي مجموعة من الأسماء تتحدد حسب سياقات الاستخدام بكونها تشير إلى وقائع، فإذا بدأنا من "الواقعة" سهل من ثم تعريف اللفظ أو العلامة اللغوية التي يشار بها إلى هذا المدلول –في الألعاب اللغوية ذات قواعد الاستخدام المنتسبة– إلى طريقة معينة في الحياة. بهذا يكون من غير الممكن إعطاء أسم واحد لشخص واحد واسم آخر لشيء آخر على نحو قسري.[74] وتمثل فكرة العاب–اللغة هذه موقفاً نقدياً بصدد إشكالية الكليات[75] universals التي كانت أحد نقاط الخلاف الهامة في تاريخ الفكر الفلسفي التي لم تقبل بطبيعة حالها حسماً قاطعاً. فيرفض "فيتجنشتاين" ذلك

---

74 Ackermann, Robert. An Introduction to Many Valued Logics, London: Routledge &Kegen Paul, 1967, p. 24.

75 الكليات: هي الأصناف العقلية العامة الحاصلة في الذهن بالفطرة والتي يستند إليها المثاليون في قولهم بأسبقية الوعي على الوجود، وأنها هي المحدد للتجربة الحسية في الإدراك وليس العكس.

المثال الأفلاطوني[76] الذي يضم جميع أفراد نوع ما في فئة واحدة كلية متحققة خارج العالم الفعلي الذي يشمل الوجود الطبيعي لذوات هؤلاء الأفراد، كما يرفض "فيتجنشتاين" كل التبعات الجدلية التي نتجت عن هذا التصور الأفلاطوني سلباً وإيجاباً، فالأمر متعلق -في نظر "فيتجنشتاين"- باللغة وأن اللغة ما هي إلا ألعاب games أي دلالات لطرق الحياة الإنسانية المختلفة وليس للموضوع المادي الثابت والموحد، ترتبط فيما بينها بمشابهات اسماها "فيتجنشتاين" المشابهات العائليةfamily resemblance، وتتحقق وفق الكيفيات المتغايرة والمتباينة في الاستخدام للعلامة اللغوية linguistic sign بقدر اختلاف وتميز الوقائع التي تشير إليها، فكل واقعة تحمل خصوصية في ذاتها وفي إدراكها وفق مبدأ اختلاف طريقة الحياة. لذا لا تصلح أن تكون كلمة (لعبة) هنا حدا كلياً universal term.[77] و"فيتجنشتاين" بذلك يعطي صورة من صور نظرية المواضعة اللغوية conventional theory of language والتي تقول بوجه عام إن اللغة ظاهرة اجتماعية وصناعة إنسانية، وإن الإنسان هو صانع الألفاظ وقواعد تركيبها في جمل صحيحة وقواعد استخدام الكلماتwords أو الرموز اللغوية linguistic symbols.

بهذا يوضح "فيتجنشتاين" أن العملية الإتصالية اللغوية وتأليف العلامات اللغوية من جهة البناء syntax والدلالة والمعني semantics إنما هو أمر يقاس وفق سياقات مبدأ القاعدة rules وليس القانون law، فالقاعدة تضبط النشاط اللفظي وفق سياقات الاستخدام، في حين يضبط القانون وضع الوقائع وتأليفها، وذلك على اعتبار أن القاعدة هي شيء عرفي قائم على موضوعات تلقائية أو غير تلقائية لدى الناس بحسب وحداتهم الاجتماعية social groups فهي إذن شيء يمكن كسره وتغييره وتعديله. بينما القانون هو ما يفترض فيه الثبات والضرورة والتعميم على غرار القوانين الطبيعية التي تحكم العلية المادية causality للكائن. لذا كان المبدأ الضابط للاستخدام اللغوي المعين عند "فيتجنشتاين" هو مبدأ

---

76 أفلاطون Plato (427-347 ق.م): من أشهر فلاسفة اليونان، كان تلميذاً لسقراط، يعتبر مؤسس المثالية الواقعية باعتباره قد افترض وجود مهايا الأشياء بنحو كلي في عالم آخر مفارق لعالمنا هذا اسماه بعالم المثل، وأن العالم الذي نعيش فيه هو عالم الجزئيات المتغيرة نتيجة سقوط النفس في البدن، فالنفس كانت تعيش في عالم المثل قبل سقوطها في البدن وتعود مرة أخرى لتأمل عالم المثل بفعل جدل عقلي صاعد، لذا كانت المعرفة لديه تذكر وليس اكتساب، وعلى مستوى السياسة اقترح ما عرف باسم المدينة الفاضلة والتي قسمها بنحو طبقي على أساس عرقي ويحكمها الحكماء، له مؤلفات عديدة في مجالات المعرفة كافة.

77 Horin, Donland Polking. Methodology for Human Science, State University of New York Press, 1983, p. 105.

"القاعدة": باعتبار الإطار المنطقي الأكثر ملاءمة لفكرة ألعاب اللغة من جهة القياس التمثيلي analogy القائم بين اللعبة واللغة من حيث وضع القواعد المنظمة للفعل. فكما أن هنالك ألعاباً شتى ذات قواعد متباينة وقابلة للتعديل والتطوير، كذلك تعامل اللغة عبر عدد يكاد لا يحصى من الجماعات اللغوية المختلفة في بيئاتها وطرق حياتها.[78]

من هنا صارت العملية المعرفية هي نتاج الصلة التبادلية المتكافئة وغير الترجيحية بين الوعي والموضوع والوسيط الصوري بينهما. ويمكن أن يفسر كل هذا بأنه محاولة متطورة للتحايل على لامحدودية تأليف المعاني لدى البشر، بأن ما تصطلح عليه فئة من الناس كنوع من الاستخدام اللغوي لا يلغي وحدة الدلالة طالما أن الأصل الذي جاء به (العهد القديم) هو فكرة الشعب الواحد في بابل. هذا، ويكون التعادل بين الجانب الجبري، وهو الدلالة، والجانب الحر، وهو لامحدودية تأليف المعاني وتعدد طرق الحياة، هو الذي يرجى منه تحقيق القوة الإلهية للإنسان والتي حاول الرب المذكور في (العهد القديم) أن يمنعها بأن يبلبل ألسنة الناس في مختلف أنحاء الأرض.

من جهة أخرى كان هذا الاتجاه اللغوي الأخير هو نتاج ما عرف في الفكر العلمي المعاصر بنظرية النموذج التي قال بها أمثال "توماس كون" Kuhn و"رسل هنسون" Hanson وغيرهم. في تلك النظرية ظهرت مفاهيم جديدة مثل (العلم القياسي) و(الثورة) و(النماذج الإرشادية) و(الأزمة) و(والقياسية) و(التحول الجشتالتي)[79] و(العلم التراكمي). وحسب هذه النظرية يمر العلم science بعدد من المراحل من علم قياسي إلى أزمة إلى ثورة إلى علم قياسي جديد. فالعلم القياسي normal science وهي حالة الاستقرار التي يبلغ فيها الأمر نحواً من الاتفاق العام بين العلماء على حلول علمية بصدد عدد من المعضلات. ولكن ظهور بعض العناصر الشاذة يؤدي إلى إحداث أزمة بين ما استقر عليه البحث وبين عدم إمكانية حل الإشكال، فهنا تحدث الثورة. هذا، ويتميز العلم القياسي بنموذج إرشادي وهو مجموعة من

---

78 Wittgenstein, Luding. Philosophical Investigations, Translated to English by G. E. Anscomle, Oxford: Basic Black well, 1958, part 1.

79 التحول الجشتالتي: نسبة إلى علم نفس الجشتالت Gestalt، وهي مدرسة معاصرة في علم النفس تقوم على مبادئ بنيوية في رد زاوية الرؤية للواقعة النفسية إلى المجال الكلي الذي تنتمي إليه باعتبارها عنصراً في نسق من التحولات والتنظيم الذاتي.

القيم المشتركة تتضمن كل ما كان يستبعده العلم التقليدي من معتقدات وأصول ميثولوجية وعناصر ميتافيزيائية. وهي ما تؤدي إلى التوصل إلى نماذج إرشادية جديدة بصورة انتقال فجائي في كثير من الأحيان جراء طريقة النظر إلى واجهة ما من العالم، حيث يتيح النموذج الإرشادي ونظرية المصاحبة له طرقاً مختلفة لرؤية العالم. وهو ما يعرف بالتحويل الجشتالتي Gestalt Switch.

إضافة إلى ذلك نجد أن التحول من نموذج إلى آخر لا يتم بسبب قدرة النموذج الإرشادي الجديد على الإجابة عن أسئلة قديمة بصورة أفضل، كما لا يحدث بسبب وجود بيّنة evidence أفضل بالنسبة للنظرية الموجودة في النموذج الإرشادي القديم، وإنما يحدث بسبب العجز المتزايد للنظام القديم عن حل الأشياء الشاذة الملحة. وتحدث الثورة لأن الإنجازات الجديدة تقدم طرقاً جديدة في رؤية الأشياء، وتظهر عندئذ مشكلات جديدة وهو ما يعرف بالأزمة. ومراحل العلم المتعاقبة تطرح مشكلات متباينة وقد لا يكون هنالك مقياس عام لتعاقبها ومن ثم هي لا قياسية un-commensurable. ونظراً لأن الأدوار التي يلعبها العلماء في عملية بناء النظريات هي التي تفسر في الغالب الأعم المفاهيم المجردة فقد يتعذر ملاحقة مفاهيم مراحل العلم المتعاقبة، حيث إن مصطلح نيوتن للكتلة mass قد لا يعنى نفس ما تعنيه فيزياء أينشاين النسبية.[80]

وهذا إنما يشير إلى تحقق دلالة مفهوم الحرية على المستويين:

– على المستوي الطبيعي بأن أصبح العلم لا تراكمياً، فهو الآن متحرر من صفة التلاحق السببي، الذي ينسخ فيه الجديد القديم، والذي يمحو فيه العلم الأسطورة والفيزياء الميتافيزياء، وهكذا تداخلت الحدود.

– وعلى المستوي الإنساني فيما يتعلق بدور الملاحظ حيث أكد "هانسون" على أن العلم هو نشاط تصوري conceptual activity، وأن علم الفيزياء ليس مجرد مظهر نسقي لمعاني العالم، وإنما هو كذلك طريقة تفكير في العالم، أو بالأحرى طريقة في تأليف التصورات بصدد العالم. من هنا فقد لا يرى الملاحظون الشيء ذاته في ظاهرة ما، ولا يبدأون من المعطيات عينها، ولا ينتهون إلى النتيجة نفسها، مع أنهم على وعي

---

80 Staniland, Hilary. Universals, London: The Macmillan press LTD, p.54.

تام بشيء واحد، وذلك بسبب أن العلماء يفرغون تأويلاتهم الداخلية والخاصة على الأشياء، ومن هذه التأويلات يمكن التوصل لمعطيات علمية جديدة.[81]

هكذا يبلغ الوعي الغربي منتهاه في فهم الحرية، تلك الحرية التي افترض (العهد القديم) في البدء أنها سبب الصراع بين الرب والإنسان، أكد على ذلك "سارتر" في نزعته الوجودية "ونيتشه" في الإنسان الأعلى، والآن يبلغ الأمر مداه على مستوى العلم المعاصر إذ تنفلت الإرادة تماماً من كل قيد في الطبيعة وفق مبدأ حرية إرادة الإلكترون وفي الإنسان وفق مبدأ حرية الإرادة للملاحظ للإلكترون.

وهكذا يبدو أمر الحرية كله في الوعي الغربي سياقاً واحداً يتأصل بصورة متزايدة في كل مرحلة حتى ينتهي إلى حقيقة أساسية وهي أن الأصل في الأشياء والحياة هو الأزمة، وأن من له أن يتجاوزها هو من يحمل صفة شعب الله المختار الذي افترضه (العهد القديم)، ومن يحمل صفة الإنسان الأعلى التي افترضها الفكر الفلسفي الغربي والذي يفرق بين سادة وعبيد. ونتاج هذا ما نراه الآن من ضرورة تحقيق موازنة المصالح الدولية في تقسيم الكتل العظمي-أي الدول المسيطرة- والكتل التابعة -أي الدول التي لا يمكنها النهوض بذاتها- وبلدان العالم الأول وبلدان العالم الثالث، والجنس الأبيض والجنس الأسود، وغير ذلك من مظاهر تطور مفهوم الحرية في العالم الغربي.

رابعاً :مؤشرات الرد الحتمي :نحو نظام نسقي للحرية في الرؤية الكونية القرآنية:

يمكن للمستقرئ لسيرة حياة الإنسان أن يجد البحث في مفهوم الحرية لا يتجه نحو توفير الحرية بذاتها وإنما يتجه بالضرورة نحو القيد على الحرية، باعتبار أن انفتاح حالة الحرية بصورة مطلقة تماماً من شأنه أن يؤدي في ذات الحين إلى خلق أزمة بصدد الاختيار بين البدائل اللامحدودة التي يمكن أن يواجهها الإنسان. ويحتاج الإنسان في تحقيق ما أراده إلى مرشد وهذا قيد، ويحتاج إلى منطق للفعل وهذا قيد، ويحتاج إلى تبرير للأداء وهذا قيد، ويحتاج إلى رغبة في السلوك وهذا قيد. وكل ذلك يتم وفق تصنيف إرادته بالنسبة إلى نظام ما. وحيث لا توجد تلك القيود تصبح الحرية أزمة اختيار بين بدائل لامتناهية ينتج عن الاختيار منها مسؤولية مباشرة يحتملها صاحب الاختيار.

---

81 هايكنج، أيان. الثورات العلمية، ترجمة وتقديم السيد نفادي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1996، ص22 و23

فأي مجازفة، وأي شك، وأي تردد، قد يجعل شخصية الإنسان وقدراته أمام حالة مطلقة دون قيد أو شرط الحرية المطلقة. هذا ويمكن ملاحظة أن تطور مفهوم الحرية إنما هو دليل على بحث الوعي الغربي في كافة مراحله ومدارسه عن نوع من القيد على الحرية وليس عن نوع من الإطلاق للحرية. وحتى المذهب الوجودي الذي يبدو أنه قد شذ عن تلك القاعدة إنما يقع في ضوابط القيد على الحرية بافتراضه لمحددات الصراع مع (الآخر) شرطاً ضرورياً لإثبات (الأنا) ego، فإن لم يكن (الحد) موجوداً لا يتحقق الفهم والإحساس والوعي بالإطلاق، لذا كان وجود الآخر بكونه حداً للحرية هو شرط لتحقق الأنا، وهو قمة ما ينشده المذهب الوجودي.

ومن ذلك أن جعل الله تعالى الحلال بيّناً بأقوام يقومون عليه فيظهرونه وجعل الحرام بيناً بأقوام يقومون عليه فيظهرونه، ولولا وجود الحرام لما تبين الإنسان الحلال ومحدداته سبيلاً للاختيار والمسؤولية والعكس بالعكس. والذين يقومون على الحرام كان ذلك اختيارهم الذي قيد حريتهم عن الجمع بينه وبين الحلال، إذ أن اختيار أحد البديلين يسقط البديل الآخر؛ فلا يمكن لبشر أن يجمع بين لذة المعصية وحلاوة الطاعة بصورة كاملة.

فرغبات الإنسان وشهواته على أي مستوي إنما تتم بالتصنيف في نظم معيَّنة systems، فاختيار طريقة معينة للحياة والسلوك يعني الدخول إلى محددات نظام معين، فيصبح توجيه الأزمة والإشكال ليس في فك القيد على الحرية بل في كيفية ضبط وموافقة محددات النظام الذي تمارس في داخله حرية الحياة له. وقد جاءت الآيات القرآنية معبرة عن ذلك المعنى تحت مفهوم الحد:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا.﴾ (البقرة: 187) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.﴾ (البقرة: 229) ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.﴾ (التوبة: 97) وتلك الآية الأخيرة تعطي إشارة إلى أن الله تعالى كان قد رهن هذه الحدود بالعلم، ويتضح هذا أكثر الشيء في قوله تعالى: ﴿إن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.﴾ (البقرة: 230)

ويمكن أن نستدل من اللفظ (يبينها) أن أولئك الذين (يعلمون) المعنيين بالخطاب هم من لهم القدرة المنهجية وأدوات البحث للتحليل ومن ثم فهم هذه الحدود وعرضها. وعلى هذا يكون ضمان تحديد النطاق السليم للحرية الإيجابية مرهوناً بالعلم بكافة مستوياته الطبيعية والإنسانية والشرعية، والعلم من ثم مقترن بالضرورة بالإيمان بل وبدرجة التقوى في الإيمان ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّه.﴾ (البقرة: 282)

كذلك يمكن الاستنباط من تحديد الحد بالعلم أنّ المظهر السلبي للحرية في تحولها إلى ظلم إنما يقترن بالجهل الذي يجعل الإنسان يسئ إلى ذاته وهو يحسب أنه يحسن صنعاً. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.﴾ (الطلاق:1) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.﴾ (الكهف:103-104)

ولعل هذا المعنى هو ما قصده "سقراط"[82] قديماً بقوله: إن الفضيلة علم والرذيلة جهل. والوجه الآخر للاستنباط عن حقيقة اقتران حدود الحرية بالعلم، هو بطلان الاعتقاد بأن الله تعالى قد ميز الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى بالعقل mind الذي هو مركز العلم ومن ثم مركز الإرادة والاختيار والفعل والمسؤولية، وهو الاعتقاد الذي أضل الوعي الغربي في سعيه للكشف عن قيمة وحقيقة الحرية وارتباطها بالوعي الذي هو خاصة الوجود الإنساني. من هنا كان الإعلاء إلى درجة التقديس لهذا الإنسان الأمر الذي أدى إلى كل ما مر في التاريخ من حروب وكوارث كنتاج لسعي هذا الإنسان لفرض سيطرته وسلطانه على الكون بأكمله بظنه أنه أفضل من فيه. ويمكن الاستدلال على بطلان هذا الاعتقاد بتقرير أن صفة (العقل) إنما هي صفة لازمة بالضرورة لكل مخلوقات الله تعالى وذلك بتقرير القرآن وفق نسق النصوص التالية:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: 72): أي أن تلك الكائنات غير الإنسان إنما لديها حرية إرادة الرفض والقبول بل والإشفاق، وهي مقتضيات مفهوم (العقل) الحر على مستواه الحسابي ومستواه الانفعالي. بل ولعل في الآية إشارة إلى أن الإنسان هو أقل هذه الكائنات عقلاً ومن ثم حريٌّ بأنه كان ظلوماً جهولاً بحمله

---

82 سقراط (469-399ق.م): فيلسوف يوناني يعتبر من أشهر الفلاسفة على مر التاريخ، كان أستاذاً لأفلاطون، أخلاقي النزعة، وضع مبادئ منهجية لتحديد المفاهيم عرفت بالتهكم والتوليد، وذهب إلى أن المعرفة تنبع من الذات وليس من الخارج لذا قال قولته المشهورة اعرف نفسك، ليست له مدونات مكتوبة وإنما آرائه حملها تلاميذه، اتهم بالإلحاد وحكم عليه بالموت بشرب السم.

ما أبت وأشفقت الكائنات الأخرى عن حمله. وقد يتضح هذا المعني بصورة جليه وفق نص الآية: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً.﴾ (الإسراء: 37) ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ.﴾ (الرحمن: 33)

فالملاحظ هنا أنها تلك ذات الكائنات التي ضرب الله تعالى بها المثل في الموقف من حمل الأمانة، ويبدو من الآيات السابقة أنها أعلى درجة في قوة وجودها، وأن القياس بينها وبين الإنسان إنما هو على صعيد القدرة العقلية والوعي، وإنها تفوق الإنسان في إدراكها الكلي لحقيقة وماهية الكون. كذلك تأتي الآيات القرآنية لتقرر صفة العقل بصورته المثلى من خلال إجراء التسبيح الذي تقوم به كل الكائنات والذي هو أعلى حقيقة كونية شاملة نابعة من بلوغ حقيقة الإيمان المطلق والمعرفة بالحق سبحانه وتعالي: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.﴾ (الإسراء: 44)

فحقيقة العقل ليست هي الأمر المميز للإنسان عن سواه من الكائنات ولا حتى ما يعرف منها تجاوزاً بأنه (جماد)، والنظريات العلمية المعاصرة كالنسبية وميكانيكا الكم قد قررت بأن ليس هنالك من مادة جامدة وإنما كل شئ هو من أصل كوني واحد هو (الطاقة)، وأن هذه الطاقة تتخذ كيفيات متعددة بحسب المجال الذي تقع فيه وتخضع لشروطه الكونية، فإما إنها مجردة وإما إنها مكثفة فتصير كتلة، ولعل هذا يكون أقرب إلى تفسير الآية القرآنية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ،﴾ (الأنبياء: 30) بأن كل شئ في الكون جُعل حياً بعنصر الماء. وهكذا يثبت العقل كحالة كونية يمتلك ناصيتها كل من في الوجود: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم.﴾ (الأنعام: 38)

وبالتالي ينتفي أن يكون العقل هو مصدر التكليف للإنسان بحمله الأمانة، وإنما مصدر التكيف الذي ميز به الله تعالي الإنسان عن غيره من الكائنات هو (القدرة على التطور) وهو أمر يحصل بالمشاهدة المباشرة واستقراء التاريخ والقياس المقارن لوقائع الحياة، فالإنسان هو الكائن الذي وهبه الله تعالى دون سواه –ممن نعلم على الأقل– القدرة على تغيير الواقع والحياة، فالإنسان في القرن الحادي والعشرون –في واقعه وهيئته وطرق حياته وعلاقاته– ليس بحال إنسان ما قبل التاريخ، والأمر مستمر من تطور إلى تطور، ومن تقدم إلى تقدم، ومن تغيّر إلى تغيّر، ولكن الأمم الأخرى ممن نعلم لم نعهد عليها تغيراً أو تطوراً أو تقدماً في طرق الحياة

وإعادة صياغة الواقع بصورة متجددة، فالنمل هو النمل والنحل هو النحل والقرد هو القرد، برغم ما يملكون من حقيقة (العقل) إلا إنهم لا يحملون قدرة التطور والتغيير.

على هذا يمكن الاستدلال بأن مفهوم الأمانة التي حملها الإنسان هي إعادة صياغة وخلق الواقع والحياة بصورة متجددة، وهو ما تشير إليه الآية القرآنية التالية: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ﴾(المؤمنون: 14) وهو الإشارة إلى وجود خالقين أو من يحملون قدرة الخلق بنحو ما، مما يسمح بإجراء الحكم بأن إعادة صياغة الواقع والحياة وإعمار الأرض هي نوع من الخلق يمكن أن يتصف القائمين عليه بصفة (الخالقين) وفق التعبير القرآني: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ.﴾ (النساء: 119) ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ.﴾ (النحل: 4) وهو الضابط والمحدد للحرية الإنسانية –المستند على تقرير (العهد القديم)– الذي بحث عنه وقرره الوجوديون الغربيون المعاصرون بتعبيرهم: أن الله إن كان يخلق من عدم فالإنسان يحيل إلى عدم، وهذا تكافؤ في الفعل، ولا حاجة لديهم للاعتقاد بوجود صفات إلهية تعلو على الإنسان. بينما يمكن أن نرى ذلك نحن المسلمين محدداً لنوع القدرة لدى الإنسان وهي قدرة التطوير والتغير التي إذا ما انتظمت وفق النسق الأخلاقي والمعرفي القرآني أدت بالإنسان إلى بلوغ أقصى مراحل السلطان، ومن ثم الحرية، وذلك فيما يعرف وفق المصطلح القرآني بالربانية والتي هي مشترطة بالضرورة (بالعلم): ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ.﴾ (آل عمران: 79)

ولعله من الممكن تفسير مصطلح (ربانيين) بأنه الحالة التي تتحقق فيها الحرية للإنسان بصورة كونية متسقة مع النسق القرآني الضابط لحركة الحياة عن وعي وعلم بها، وهو الأمر الذي ظل الوعي الغربي يحاول تحقيقها عبر انساق فكرية عدة، بدءاً بفكرة نديّة الإنسان للرب والشعب المختار في (العهد القديم) المكتوب بأيديهم، ومروراً بتصورات "هيجل" و"نيتشه" حول الإنسان الأعلى المتفوق ودولة نهاية التاريخ، وانتهاءً بفرض القيد الوضعي التجريبي والمادي على مستوى البناء والتحليل، ثم الانفلات عنه بالنزعات الوجودية والعبثية والعدمية والتفكيكية وما نحو ذلك.

فكانت تلك الأنساق سبباً دائماً لخلق الأزمات عبر مراحل تطور الوعي في مجملها، وكان ذلك نتيجة اصطدام هذه الأنساق مع النسق الكوني الكلي وحقيقته التي أصدرها الله تعالى بكلمة منه "كن فيكون".

وفي المقابل كان على الإنسان حتى ينتقل ويتحول من مرحلة خلق الأزمات المستمرة عبر التاريخ إلى مرحلة التطور المتصاعد والمطرد، الذي يجعل العلم متسقاً تماماً مع طرق وإجراءات تطويره أن يلتزم بصورة كلية وصارمة جميع عناصر النسق الوحيد الموحد بين الكلمة word والدلالة reference باعتبار "كن فيكون" وهو النسق القرآني، والحجة في ذلك قوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38)

الخاتمة:

إن قراءة تاريخ الفكر الغربي ودراسته دراسة تحليلية دقيقة هو أمر مهم لفهم وتمييز وعينا بعناصره واتجاهاته بصورة أكثر وضوحاً. فإذا كانت أهمية الوعي الغربي تكمن في إبداعه لمنطق خلق الأزمات الفكرية وفق مفهوم الرؤية الكونية الشاملة worldview باعتماد المشاهدة الواقعية، فإن ذلك ما يجعل بإمكاننا أن نستنبط منهجاً لمنطق التجاوز السببي أو العلّي للأزمات الفكرية، باعتماد مفهوم النظام المعرفي epistemological system المؤسس على طريقة للقراءة العلمية لكلام الله تعالى بوصفه نسقاً واحداً.

وعليه، فإن منطق خلق الأزمة هو دائرة لا فكاك عنها أحاطت بمن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله. أما منطق التجاوز السببي أو العلي فهو مجال البحث المتاح أمام من يقف بصدد النصوص المتحدى بالإتيان بشيء من مثلها، فيجعله حراً ينطلق في ملكوت الله بالعلم وأسبابه، وليس أسيراً لأزمة خلقها أفقه المحدود وجهله الذي يتسع كلما تكشفت له حقيقة كونية جديدة.

بهذا يمكن أن نخلص في هذا البحث إلى إطار منهجي عام مؤلف من شقين: الأول هو ضرورة لفت الانتباه إلى أنه لا يمكن الانفلات من الخاصية النسقية systemic thought للتفكير، فكل مستوى من مستويات التفكير يكون داخلاً في نسق معين، والتحول إلى مستوى آخر هو بدوره تحول إلى نسق آخر. فالسعي لا يكون نحو إيجاد أنظمة تفكير غير نسقية؛ أي تحرير الفكر عن الانتماء بصورة مطلقة، ولكن هذا يبدو نوعا مما يمكن تسميته بالدور المنطقي أو بقول آخر هو السقوط دائماً فيما أردنا تجنب السقوط فيه؛

أي كلما أردنا الخروج بالتفكير خارج إطار النسق فإننا سرعان ما نتبين أن هذا إن هو إلا خروج عن نسق بعينه والدخول بصورة مباشرة وضرورية إلى نسق من نوع مغاير، قد يكون على نفس مجال النسق الأول ولكنه أكثر شمولاً وعمومية، أي (الانتقال رأسيا في النسق)، أو قد يكون على مجال مختلف من مجالات التعامل المعرفي مع الكون، أي (الانتقال أفقياً في النسق). وعليه يكون التوجيه هنا إلى تركيز الجهد نحو إيجاد النسق الحق وليس توزيع الجهد نحو محاولة الخروج غير الممكنة عن حدود أي نسق، باسم الحرية أو بدافع منها، فهذه الحرية عينها إذا أمكن وضعها كمفهوم في حدود نسق –وهي أكثر المفاهيم انفلاتاً بذاتها وتعبيراً عن الانفلات بطبيعة حالها– فلن يستعصي وضع أي مفهوم آخر في ذات النسق ليؤلف الكل من هذه المفاهيم وحدة نسقية.

وليس أدل على مقولة النسق هذه من الانطلاق من مبدأ الإسلام في ربط العلم بالعمل فقد أمكن لعلوم النفس والاجتماع والفيزياء ضبط وتصنيف أنماط الفعل والحركة في أنظمة تحكمها بحيث تكون أدوات وشواهد في تفسير الظواهر، فإذا كان الأمر كذلك فالعلم لا وجود له إلا بما يحققه من فائدة، ولا فائدة له دون التنفيذ والتأثير في العقول الأخرى other minds فليس هناك علم دون عمل أي ليس هناك فكر دون نسق، وبالتالي لا يمكن فهم الحرية إلا في إطار نظام ضابط.

والشق الثاني، هو أن هنالك إجراءً منهجياً لا بد أن يتبع بصدد تحقيق التفسير الكلي للمفاهيم في نسق نحن نؤمن به. هذا الإجراء هو قراءة العقل الأخر لفهم منطلقات الأنا ego في أبعادها الحقيقية؛ أي إننا إذا أردنا تكوين رؤية كونية شاملة من خلال نسق فكري معين، فلا بد أن يكون من ضمن العناصر الأساسية في فهم هذا النسق –ومن ثم تكوين الرؤية الكونية الشاملة خاصتنا –عنصر التفاعل المتداخل بين موقفي الذاتي ونمط الوعي وما اتبع إليه من نسق، وبين موقف الأخر ونمط الوعي لديه وما يتبع إليه من نسق. فهناك الكثير من عناصر الوعي الذاتي التي لا تكشف عن نفسها إلا باطلاعها على عناصر مقابلة في الوعي الآخر. واختصاراً، اكتشاف الأنا أمام الآخر؛ أي أن ما يتمم معرفتي بذاتي هو مظاهر استجابة هذه الذات على مواقف الذات الأخرى وما يترتب على هذه الاستجابة من انفعال وسلوك. وبدون هذا الآخر سيظل هناك الكثير من الأشياء التي لن أعرفها عن ذاتي وهذا ينسحب بدوره على ما اعتقد فيه من نسق.

فالملاحظ –على سبيل المثال– أن الميدان الواسع لدراسة الاستشراق في الغرب ليس الغرض منه فقط التأثير على الوعي الشرقي؛ بقدر ما يبدو الغرض من ذلك هو فهم الوعي الغربي واكتشافه لذاته بوضعه أمام نمط الوعي الشرقي. ونحن بدورنا إذا أردنا فهما كليا للنسق الإسلامي في أي مجال من المجالات، فلا بد أن يكون عنصراً أساسياً من عناصر هذا الفهم هو وضع هذا النسق أمام الأنساق الأخرى المغايرة وضرورة قراءة هذه الأنساق الأخرى،لنعيد بصورة متطورة قراءة نسقنا الذي نعتقد، فنحن ندين إلى الوعي الغربي وأنساقه كل الثغرات والتساؤلات الفكرية التي فتحها، ليكون سدُّنا نحن لهذه الثغرات وإجابتنا على تلك التساؤلات هو تحقيق إضافة جديدة في الفهم والاستيعاب والاكتشاف لحقيقة ما نعتقد فيه، وهذا يردنا إلى مبدأ ارتباط العلم بالعمل، فالعمل باعتباره العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، وبين الأنا والكون، هو ما يحقق التطور المطرد والمستمر للعلم.